من بلاغة القرآن الكريم

فى

بيان شأن الصلاة

فتحية محمود فرج العقدة

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

جامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ؛

فهذا البحث دراسة بلاغية لجانب من جوانب الأسلوب القرآنى العظيم وإعجازه الظاهر، ذى المجالات الواسعة العديدة ، وهو جانب "بيان شأن الصلاة" تتجه لتبين خصائص النظم القرآنى العظيم فى إيضاح شأن تلك الفريضة التى تتخذ مكانها البارز فى شرائعه ، وتبيُّن ما تصدر عنه من وجوه الفضل لكونها عماد الدين ، وكونها المظهر العملى الجامع للاستجابة لمقتضى الإيمان بالله من خشوع وقيام وركوع وسجود وتلاوة قرآن وتسبيح بحمد الله وباسمه الأعلى ، ووقوف فى جميع ذلك بين يديه ، جامعة فى هذا السموّ الروحى للنفس البشرية بين ما هى فيه من شئون الدنيا ، وماهى صائرة إليه من شئون الآخرة ، لتكون فى ذلك الإطار الممتد زمنياً مستلهمة القوة التى تعينها على أداء ما كُلفت به وما هى مسئولة عنه.

هذا ، وتنقسم هذه الدراسة إلى ستة أقسام صدَّرْت كلا منها ببيان لما اشتمل عليه من أسس التحليل البلاغى وغاياته ومجالاته ،

وماتضمنته دراسته من جوانب ؛ فجعلت القسم الأول مستهلا بمقدمة مختصرة فى إعجاز القرآن الكريم ، انتقلت منها إلى بيان معنى الصلاة لغة وشرعاً وبلاغة ، ثم تمييز شأن الصلاة بالاستخدام القرآنى لها فى الاقتران بألفاظ جامعة للعبادة والدين ، ثم دراسة معنى الإقامة وصلة ذلك المعنى ببيان شأن الصلاة ، ثم بيان شأن الصلاة ببيان سجود جميع الخلائق لله تعالى من خلال ما ورد فى النظم القرآنى الكريم من ذلك.

وجعلت القسم الثانى مختصاً بدراسة تحليلية لمجموعة من الأساليب البلاغية التى ورد فى إطارها بيان شأن الصلاة ، متجهة فى ذلك إلى ما احتل بينها مركز الصدارة، وهو أسلوب القصر ، باحثة طرقه المتنوعة بتنوع ما دعا إليها من مقامات الكلام ومجالاته وما تضمنه من أساليب بلاغية أخرى حققت أغراضه ، ومتبعة ذلك بأساليب القسم والشرط والالتفات والتشبيه والاستعارة ، محللة ما ورد فى إطار كل منها من أساليب بلاغية أخرى تحقق غاياتها.

أما القسم الثالث فاتجهت فى دراسته إلى تبين شأن الصلاة من خلال دراسة الأساليب البلاغية التى تبين هول التهاون فيها وتركها وتصوير عاقبة ذلك واشتمل على التقاء جوانب الترغيب والترهيب وإيجاز الحذف ، وورد فى جانب كبير منه متضمناً أساليب الكناية ، وفى جانب كبير آخر متضمناً أساليب الاستفهام الإنكارى ، وتعلق كلاهما بالكثير من الأساليب البلاغية التى تتجه إليها الدراسة بالتحليل والاستنتاج.

أما القسم الرابع فهو يتناول بالدراسة والتحليل البلاغى وما يعين عليه من التحليل اللغوى والصرفى ما يتعلق بالأمر بالصلاة من صيغ لغوية ، تتصدرها صيغة المفاعلة فى الأمر فى قوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ) ، ودراسة اتصال السياق – هنا – بما ينتقل إليه من ذكر صلاة الخوف ، والتوقف بعد ذلك لدى استهلال سورة"المؤمنون" بالجملة الخبرية التقريرية المؤكَّدة (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) وما تبعها من الأساليب الوصفيه المستهلة بقوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) ، ثم دراسة ما يرد خلال ذلك وغيره من عناصر بلاغية

وصيغ دالة ، واشتمل فى ذلك على مجموعة نقاط تتعلق بما سلف بيانه ، وتتعلق كذلك بالإظهار فى موضوع الإضمار ودوره ، والفصل والوصل ودلالالتها ، والتعريف والتنكير وغاياتهما، وتنوع الأساليب الوصفية ، والإشارة بالوصف الجامع الدال ببعض الألفاظ ذات الشأن مثل : "المخبتين – المحسنين – القانتين " ، وتعلق جميع ذلك بسياقه من خلال الدراسة التحليلية البلاغية.

ويتناول القسم الخامس – فى ذلك – دراسة أساليب النداء وبيان آثارها فى تحقيق غايات الأساليب ، وما تشتمل عليه من وصف أو تتعلق به من إشارات دالة على الشأن ، أو تحققه من أغراض يقتضيها المقام ، ويشتمل ذلك على أساليب نداء النبى ﷺ وأمره بصلاة الليل وما يرد فى بيان شأنها من ألفاظ تقتضى التوقف والدراسة كناشئة الليل ، وأشد وطئا ، وأقوم قيلا وغيرها ، لبحث آثارها وفضلها فى بيان شأن تلك الصلاة على نحو خاص ، وكذلك نداء نساء النبى ونداء المؤمنين وما ورد من النداء فى مقام الوعظ ، ومقام الدعاء وما إلى ذلك مما يتضمن مجالات واسعة من التشريع كالوضوء والتيمم والطهارة وأساليب متنوعة فى بيان شأن الصلاة ؛ كصلاة الجمعة ، وغير ذلك.

أما القسم السادس فخصصته لدراسة أساليب النظم القرآنى المتعلقة بكيفية بيان شأن الصلاة ببيان شأن ما يتعلق بها من الأوقات والأماكن وما تشتمل عليه من تلاوة وذكر لله تعالى ، وما تتصل به من أحوال المصلين ومايدعمها من القوى النفسية وصورها ، والترغيب والترهيب وآثارهما ، وما يشتمل عليه ذلك من أنماط تعبيرية خاصة كقوله تعالى فى إطار ذكر الأوقات: (وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ) وكذلك: "أطراف النهار "، وما يتصل به فى الإطار النفسى من معانى المجاهدة فى اتصالها بصيغ معينة مثل "يُمَسِّكُونَ" "يَدْرَؤُونَ" ، وما يتضمنه كذلك من أساليب كالمقابلة والطباق ، ومن حذف وذكر ، وإظهار أو إضمار ، وتقديم أو تأخير أو غير ذلك مما تقتضيه طبيعة التعبير ووسائله.

والله ولى التوفيق والسداد

والحمد لله رب العالمين.

القسم الأول

تدور الدراسة فى هذا القسم حول مجموعة من الجوانب التى تمثل أساسا متعلقا ببيان شأن الصلاة فى القرآن الكريم؛ فتستهل بإلمامة موجزة فى بيان الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم ، ثم تنتقل إلى إيضاح معانى لفظ "الصلاة" لغة وشرعاً وبلاغة ، وصلة تلك المعانى ببيان شأن الصلاة ، وما تتصف به من وجوه الفضل ، ثم تتتبع كيفية ظهور شأن الصلاة من خلال الاستخدام القرآنى الكريم للفظها وأعمالها ، وما تتعلق به عامة مقترناً بالألفاظ الجامعة لمعانى العبادة والدين مثل : الميثاق ، والبر ، والتقوى ، والإنابة، وما يتعلق بالتوحيد الخالص – عامة– من أعمال ومظاهر ، وما يتصل به ذلك فى المجال القصصى القرآنى الكريم ، ثم بيان ربط القرآن الكريم فى مواضع كثيرة بين ذكر الصلاة والزكاة أو الإنفاق بوجه عام ، وبيان شأنها بربطها بالنهى فى جانب من جوانب التحريم – صونا لها – واتصال ذلك بحال مخصوصة.وتنتقل بعد ذلك لبيان معنى "إقامة الصلاة"وصلة ذلك المعنى ببيان شأن الصلاة ثم تقف بالتحليل والدراسة لدى إظهار القرآن الكريم شأن الصلاة من خلال بيان "سجود" جميع الخلائق لله تعالى.

واجتمع ذلك فى النقاط التالية :

- إعجاز القرآن الكريم.
- الصلاة لغة وشرعا وبلاغة.
- تمييز شأن "الصلاة" بالاستخدام القرآنى لها فى الاقتران بالألفاظ الجامعة لمعانى العبادة والدين .
- معنى إقامة "الصلاة" وصلة ذلك المعنى ببيان شأن "الصلاة".
- بيان شأن "الصلاة" ببيان "سجود" جميع الخلائق لله تعالى.

أولاً : إعجاز القرآن الكريم :

للقرآن الكريم إعجازه المعروف فى جميع مجالات القول ، وهو فى كل حال يأخذ بيد النفس البشرية التى يخاطبها بالتكاليف ، لتحقق ما فيه خيرها ، مبينا لها – تفصيلاً – وجوه شرعه ، وأحكامه ، ميسراً عليها ما يكلفها به بما يرغبها فيه من الوسائل ، ويرهبها منه وينفرها ، فى إطار من البيان الوضوح.

وهو فى ذلك يخاطب العقول ويقدم لها الأدلة والحجج ، ولا يغفل النفوس وما فيها من مشاعر واتجاهات " ففى النفس الإنسانية قوتان" قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها. فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين.(١)

وإعجاز أسلوب القرآن الكريم كلمة شاملة لجميع وجوه الإعجاز فهو "مادة الإعجاز العربى فى كلام العرب كله ، ليس من ذلك شىء إلا وهو معجز ، وليس من هذا شىء يمكن أن يكون معجزاً ، وهو الذى قطع العرب دون المعارضة واعتقلهم عن الكلام فيها".(٢)

وبيان ذلك "أن القرآن معجز من جميع الوجوه : نظماً ، ومعنى ، ولفظاً ، ولا يشبهه شىء من كلام المخلوقين أصلاً ، مميَّز عن خطب الخطباء وشعر الشعراء باثنى عشر معنى ، لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعانى لكان معجزاً ، فكيف إذا اجتمعت فيه جميعاً. ومجملها: إيجاز اللفظ ، وتشبيه الشىء بالشىء ، واستعارة المعانى البديعية ، وتلاؤم الحروف والكلمات ، والفواصل والمقاطع فى الآيات ، وتجانس الصّيغ، والألفاظ ، وتعريف القصص والأحوال ، وتضمين الحكم والأسرار ، والمبالغة فى الأمر والنهى ، وحسن بيان المقاصد

---

(١) النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز: ١٠٧. مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعى : ١٨٣. دار الفكر العربى. ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

والأغراض وتمهيد المصالح والأسباب، والإخبار عما كان وعما يكون". (١)

والقرآن الكريم – في كل مجال يتناوله – يأتي بما يلائمه من الأساليب التي يقتضيها المقام وحال الخطاب، بأسلوب متميز، فإذا عمد إلى المعنى الغيبي أبرزه في إطار حسي مبين له كالتشبيه والاستعارة والوصف، أو دال عليه كالكناية وما إليها وإذا كان المعنى ظاهرًا والدلائل واضحة، أثار الأسلوب الإنكار والتعجيب من المخالفين والمعاندين بوسائل الاستفهام والتعجيب، والخطاب أو الإعراض والالتفات وما إليها، وإذا كانت العناصر غير واضحة التميز والتفاوت في الفضل في الفكر الإنساني تتطلب أخذاً بالأيدي لبيانها وجد التقديم والتأخير ووضع الظاهر موضع المضمر والتكرار وما إليها طريقها لبيان الأولى والأهم في ذلك، وإذا اقتضى التشريع ثناء على الملتزمين به وذماً للمخالفين إياه، وجد التفصيل والوصف والمقابلة والقصر وغيرها طريقها إلى ذلك الثناء، واستخدام التعريض بإشاراته الدالة طريقاً للإلماح إلى أولئك الذين لا مجال لذكرهم ليكون أبلغ تأثيرًا في البيان وإقامة الحجة.

فالقرآن الكريم – بوجه عام– "في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها، وهي أحق به". (٢)

"فنظمه المخصوص معجز على ما قال الله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا).... وإن أردت مثالاً فعليك بسورة الفاتحة، فإنها عنوان مقاصد القرآن، وبه سميت أم القرآن لجمعها مقاصده، ولذلك جعلت مفتتحة له وسميت الفاتحة، ومجزية في الصلاة ولذلك

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ١ : ٦٨ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز: ٨٤.

سميت الكافية ، ومن ثم حسن أن يحمل قوله ﷺ : "لاصلاة لمن لم يقرأ فيها بأم الكتاب" ، على نفى الإجزاء لأن غيرها ليس فى معناها". (١)

الصلاة لغة وشرعاً وبلاغة :

قال الرازى – موضحاً المعانى اللغوية المتعلقة ببيان لفظ الصلاة لغة – : "ذكروا فى لفظ الصلاة فى أصل اللغة وجوهاً (منها) : اشتقاقها من الصلى ، وهى النار ، من قولهم صَلَيْتُ العصا إذا قومتها بالصلى ، فالمصلى كأنه يسعى فى تعديل باطنه وظاهره مثل من يحاول تقويم الخشبة بعرضها على النار ، ومنها : أن الصلاة عبارة عن الملازمة من قوله تعالى : " تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً " (٢) ، " سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ" (٣) ، و سمى الفرس الثانى من المسابقة مصلياً. (٤)

وقيل : "الصلاة فى الأصل عند بعض بمعنى الدعاء....، وعند أهل الشرع مستعملة فى ذات الأركان ، لأنها دعاء بالألسنة الثلاثة : الحال والفعل والمقال ،... وسمى الداعى مصلياً تشبيهاً له فى تخشعه بالراكع الساجد ، وقيل : أخذت الصلاة من ذاك ، لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلّى من الخيل" (٥) ، وقيل: "كل صلاة فى القرآن فهى عبادة ورحمة إلا قوله تعالى: (صَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ) فإنه يريد بيوت عبادتهم" (٦).

وقال صاحب "الوجوه والنظائر" فى بيان معنى الصلاة وكونه على وجوه :

منها: الصلاة يعنى الاستغفار ، (وذكر) قوله تعالى فى سورة

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : كمال الدين الزملكانى ٩ : ٥٥ مطبعة العانى . بغداد.
(٢) سورة الغاشية : الآية ٤.
(٣) سورة المسد : ٣.
(٤) مفاتيح الغيب : فخر الدين الرازى : ١ : ٣٩٢ . دار الغد العربى . "الطبعة الأولى" ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
(٥) روح المعانى : الألوسى : ١ : ١١٩ . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
(٦) البرهان فى علوم القرآن : الزركشى : ١ : ١٠٨. دار التراث.

براءة : (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) أي استغفر لهم "إن صلاتك" يعني استغفارك ، وكقوله : (وصلوات الرسول) يعني استغفار الرسول.

والوجه الثاني : الصلاة يعني المغفرة (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ) يعني المغفرة "ورحمة" ، "هو الذي يصلي عليكم وملائكته" يعني: بالمغفرة (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) إن الله – تعالى- يصلي بالمغفرة.

والوجه الثالث: الصلاة بعينها : قوله في سورة المائدة : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ).

والوجه الرابع: الصلاة : بيوت الصلاة : قوله تعالى في سورة الحج (صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ) يعني : بيوت الصلاة (وَمَسَاجِدُ) (١).

وقيل أيضا: "في قوله تعالى:(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) قال الإمام الغزالي: الصلاة :"الاعتناء بالشأن" (٢)... وجمع(صلوات) للإشارة إلى أنها مشتملة على أنواع كثيرة على حسب اختلاف الصفات التي بها الثناء ، والمعاصي التي تتعلق بها المغفرة ، وقيل : "للإيذان بأن المراد صلاة بعد صلاة". (٣)

كما قيل في هذه الآية: "فاعلم أن الصلاة من الله هي الثناء والمدح والتعظيم"، (٤) وقيل فيها أيضا: (صَلَوَاتٌ: مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ) (٥) – كما سبق بيانه في موضع آخر، وقيل "الحنوّ والتعطّف فوضعت موضع الرأفة"(٦).

وقيل في قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) : فصلاة الناس عليه دعاؤهم له ،

---

(١) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز : لأبي عبد الله الدامغاني : ٦ – لجنة إحياء التراث . القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) روح المعاني : الألوسي : ٢ : ٤٢١.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) مفاتيح الغيب : الرازي : ٢: ١٧٢.

(٥) تفسير الجلالين (تفسير القرآن العظيم) : جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي : ٢٤. دار الفكر ، بيروت – لبنان ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٦) الكشاف : الزمخشري : ١ : ٣٢٤ . دار الفكر . الطبعة الأولى . ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

وصلاة الله عز وجل إشاعة الخير عنه.(١)

أما الصلاة شرعاً فهى "عبارة عن أفعال مخصوصة يتلو بعضها بعضاً مفتتحة بالتحريم، مختتمة بالتحليل"(٢).

أما معنى الصلاة مجازاً فقد قال فيه الشهاب :"الصلاة المراد بها مطلق الطاعة مجازاً "(٣)، وذكر الألوسى معنى الإيمان فى قوله تعالى : " وما كان الله ليضيع إيمانكم"(٤): " أى صلاتكم إلى القبلة المنسوخة.... فالإيمان مجاز من إطلاق اللازم على ملزومه"(٥) وبهذا المعنى قال كثيرون غيره.

وتسمية الصلاة باسم ما يكون فيها من أعمال السجود والركوع والتسبيح والقيام وتلاوة القرآن، كله من باب المجاز المرسل، وقد تضمنته كتب التفسير والبلاغة، وجمعه بعضهم فقال : "التعبير عن الصلاة ببعض ما شرع فيها من الواجبات أو المندوبات، له أمثلة : **أحدها:** التعبير عن الصلاة بالقيام فى قوله: (قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً) وقوله : (لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) أى لا تصل فيه أبداً ... ، وفى قوله :(وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ): معناه : وصلوا لله مطيعين. فإن أهل الملل يعصونه بصلاتهم.

الثانى : التعبير عنها بالسجود فى قوله: (وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) معناه : وصلوا مع المصلين.

الثالث: التعبير عنها بالسجود فى قوله : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ) أى فصل له ،... وفى قوله:(يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) أى : وهم يصلون ، لأن التلاوة منهى عنها فى السجود الحقيقى ، فلا يصح المدح بما نهى عنه.

---

(١) معانى القرآن:الأخفش الأوسط : ٢ : ٤٤٣ . تحقيق فائز فارس . الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
(٢) مفاتيح الغيب : الرازى : ١ : ٣٩٣.
(٣) البيان عند الشهاب الخفاجى : فريد النكلاوى : ٢ : ١٤٥ . مطبعة الأمانة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٤٣.
(٥) روح المعانى : الألوسى : ٢ : ٤٠٦.

الرابع : التعبير عنها بالقراءة فى قوله : (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ).

الخامس: التعبير عنها بالتسبيح فى قوله : (وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) ، وفى قوله : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) ، وفى قوله: (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ، وفى قوله: (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ).

السادس : التعبير عنها بالذكر ، فى قوله: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)...

السابع : التعبير عنها بالاستغفار فى قوله : (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) وحمله بعضهم على الحقيقة" (١).

واتساع مصطلح "الصلاة" لاستيعاب جميع هذه المعانى اللغوية والبلاغية والشرعية، له دلالته على فضل هذه التسمية التى هى من الله تعالى ، فى بيان ما تتعلق به من دلالات التقويم أو الملازمة أو الدعاء والخشوع أو كونها ثانية بعد الإيمان ، أو استغفار أو رحمة أو ثناء أو دعاء ، أو غير ذلك مما يدخل – فى الحقيقة – فى دلالات الصلاة وأعمالها ونتائجها الموصلة إلى غايات العبادة وصلة المخلوقين بخالقهم.

وله دلالته كذلك على بيان فضل أركانها فى استقلال كلّ بشأنه حتى أنه جاز إطلاقه على الصلاة مجازاً جارياً مجرى الحقيقة .

تمييز شأن (الصلاة) بالاستخدام القرآنى لها فى الاقتران بالألفاظ الجامعة لمعانى العبادة والدين.

ولقد أظهر الأسلوب القرآنى الكريم شأن الصلاة بإيراد ذكرها مقترناً بألفاظ لها قدرها وخطورتها ، "كالميثاق" ، فى قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز : عز الدين عبد السلام : ٦٦. دار الفكر بدمشق.

مِن تَحتِهَا الأنهارُ فمَن كفرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنكمْ فقدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) [١] ، ولا يخفى تصدُّرُ إقامة الصلاة لهذه الأعمال التى جمعت تحت اسم "الميثاق" ودوره فى بيان فضلها وسمو شانها ، كما لا يخفى ما لورود لفظ الجلالة هنا مظهراً فى موضع الإضمار من "تربية للمهابة ، وتفخيم للميثاق وتهويل للخطب فى نقضه" [٢] وما لورود ذلك الميثاق وما اشتمل عليه فى سياق القسم الذى أشارت إليه "اللام" فى : "لئن أقمتم" ، والشرط "بإن" من بيان الشأن وعظمه.

ومما ورد ذكر الصلاة مقترنا به مشيرا إلى ذلك الشأن العظيم لفظ "البر" فى قوله تعالى:(لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [٣].

فالسياق يبين معنى البر على هذا الوجه الشامل لوجوه العبادة ، مصححا مفهوما آخر له ، ومتجها إلى هذه الدلالة الجامعة التى تظهر من بينها إقامة الصلاة فى سياق مفصل متصل بأسس هذا البر من إيمان وعمل ووفاء بالعهد وغيرها ليصل إلى بيان آخر يؤكد معنى تحقق هذا البر فى أصحابه بالحكم بكونهم صادقين ومتقين.

وورد الأمر بإقامة الصلاة مقترناً بالأمر بالعبادة على نحو موجز جامع دال يتضح فى قوله تعالى:(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [٤]

فعطف الأمر بالصلاة على الأمر بالعبادة المشتملة عليه عطفا للخاص على العام لفضلها وسمو شأنها لما "نيطت به من ذكر المعبود

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٢.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٦ : ٢٥٧.
(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٧.
(٤) سورة طه : الآية ١٤.

وشغل القلب واللسان بذكره"[١]، واقترنت فى ذلك بالتوحيد الخالص فى إطار القصر "لا إله إلا أنا" الوارد بعد التأكيد بإن والقصر بتعريف الطرفين بيانا وتأكيدا لدلالة التوحيد فى "إننى أنا الله" ووردت الفاء لترتيب الأمر بإقامتها على ذلك التوحيد، ثم اتصلت بالتعليل المؤكد وجوب تلك الإقامة ودوامها فى قوله تعالى "الذكرى".

وهذا التلازم بين التوحيد الخالص لله تعالى وبين إقامة الصلاة وما يتبعها من أعمال العبادة ووجوهها ورد فى إطار شامل لجميع ذلك فى قوله تعالى : (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[٢] فقد جمع العبادة فى جميع وجوهها فى هذا الإطار العملى المشتمل عليها، والزمنى الذى يمثل ظرفى الحياة والممات وما يلابسهما وجعلها جميعا خالصة لله تعالى، وبدأ بتأكيد الخبر فى مقام مستهل بـ "قل" موحيا بالمخاطبة لمن من شأنه أن ينكر ذلك، ومستعملا العطف ربطا لما ذكر فى إطار جامع، جاعلا الصلاة وما عطف عليها مسنداً إلى قوله:(لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فى إشارة جامعة لمعانى التوحيد، ثم منتقلا بعد هذا الجمع لتأكيد معنى التوحيد فى قوله "لا شريك له"، ثم رابطا بالإشارة بـ "ذلك" بيانا لبعد الشأن وسموه، ورجوعا إلى ما ذكر، وربطا له بما بعده فى قوله:(وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

وورد استخدام لفظ "صلاتى" فى ذلك مشيراً إلى عموم الصلاة " أى جنسها لتشمل المفروضة وغيرها"[٣] وفى جعل الصلاة مبدوءا بها فى ذلك الأمر ما يميز شأنها ويشير إلى كونها جديرة به.

وورد الأمر بإقامة الصلاة متميزاً بمكانه وشأنه فى إطار ذكر وجوب : الإنابة إلى الله تعالى، والأمر بالتقوى، والنهى عن الشرك بالله تعالى، فى أسلوبى العطف والبدل، وذلك فى قوله تعالى :(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا

---

(١) روح المعانى الألوسى : ١٦ : ٤٦٤.

(٢) سورة الأنعام : الآيتان ١٦٢، ١٦٣ . نسكى : عبادتى كلها.

(٣) روح المعانى : الألوسى : ١٦ : ٣١٢.

دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ).[1]

ولقد اتخذت إقامة الصلاة هنا موضعها من السياق بين ذكر الإنابة إلى الله ، والتقوى ، والنهى عن الشرك ؛ فكل هذه معان تتصل بأحوال الإيمان وأثره فى الأنفس والقلوب ، صادرة عن العقيدة الجامعة لأسس هذا التوحيد الخالص الذى بنى عليه الدين ، ووردت إقامة الصلاة هنا باعتبارها المظهر العملى المتميز الجامع لمظاهر الاستجابة التى انطوت عليه القلوب والعقول من العقيدة والحال، ومظاهر الاستجابة العملية المتعلقة بذلك.

واتصل الأمر بإقامة الصلاة بالنهى عن الإشراك بالله فى قوله تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) قيل "والمعنى : ولا تكونوا من المشركين بتركها"[2] ، واتخذ هذا النهى عن الإشراك بالله طريقه للبيان ، عن طريق "البدل" فى إتباعه بقوله تعالى:(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا...) وفائدته: "التحذير من الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين"[3]، ويؤكد هذا ما سبقه فى الآية التى قبل ذلك حيث قال تعالى :(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[4] فالأمر بإقامة الوجه للدين معناه : "اتبع الدين...(فهو) أقرب فى تأليف النظم لأنه موافق لقوله تعالى – قبله مباشرة – "بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم" ، ولترتيب قوله تعالى "فأقم وجهك عليه بالفاء....."[5]

والأمر بإقامة الصلاة ، يتخذ بياناً لشأنه فى إطار العطف على تلاوة القرآن الكريم، وتعليل الأمر بإقامة الصلاة وبكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وورودها – بياناً لشأنها كذلك – بإعادة ذكرها

---

(١) سورة الروم : الآتيان ٣١ ، ٣٢.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٢١ : ٤٠.
(٣) نفسه.
(٤) سورة الروم : الآية ٣٠.
(٥) روح المعانى : الألوسى : ٢١ : ٤٠.

بالإظهار في موضع الإضمار ، ثم بتسميتها "ذكر الله" في إطار التفضيل ، وذلك في قول الله تعالى : (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ")(١).

فلقد أعيد ذكر الصلاة بعد الأمر بها في (وأقم الصلاة) فقال تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى...) ثم قال :(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي "وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله" كما قال :"فاسعوا إلى ذكر الله" [في شأن صلاة الجمعة] ، وإنما قال : ولذكر الله ليستقل بالتعليل، كأنه قال وللصلاة أكبر لأنها ذكر الله.... وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته"(٢)

وورد الثناء على المقيمين الصلاة – بيانا لشأنهم – مقترنا بذكر ثبات إيمانهم ويقينهم بالآخرة في إطار التأكيد ، فقال تعالى: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)(٣) ، فتكرر الضمير الراجع إليهم "هم" مصاحباً تكرار الإسناد إليهم متقدما على خبره الفعلي "يوقنون" في قوله تعالى " وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" مما يفيد تقوية الحكم وتأكيده وقصره عليهم دون غيرهم ، في إطار من الثناء الذي تكرر فيه ذكرهم في : "الذين – وضمير الجمع في "يقيمون" و"يؤتون" و"يوقنون" ، وفي إطار تكرر صيغة المضارع الدال على استمرار ذلك وتجدده في أعمالهم.

وللتأكيد بوسائله المتنوعة أثره – في إطار الأسلوب القرآني العظيم – في بيان الشأن ومقدار الصفة ، "وتثبيت المعنى في نفوس قارئيه ، وإقراره في أفئدتهم حتى يصبح من عقائدهم"(٤).

وورد ذكر الصلاة في إطار ذكر السجود في مجال القصص

---

(١) سورة العنكبوت : الاية ٤٥.

(٢) الكشاف : الزمخشري : ٣ : ٢٠٧.

(٣) سورة النمل : الآية٣.

(٤) من أسرار البلاغة في القرآن : محمد السيد شيخون : ٨٠ مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

القرآنى العظيم بيانا لشأن ظهور الآيات الموجبة له ، ليتحول متدبرها من الكفر إلى الإيمان فيتلازم فى ذلك قوة ظهور الآيات وقوة الانتقال وفجأته من الكفر إلى الإيمان ، ويتخذ السجود فى ذلك مظهر البيان الدال على كمال الاعتقاد بوجوبه كمظهر عملى للجوارح فى استجابتها لذلك الاعتقاد الثابت ، كل ذلك فى مقام مقترن بإثبات النبوة وبيان شأن الحق فى مواجهة الباطل.

وفى ذلك الإطار وردت قصة موسى عليه السلام وما كان من شأن السحرة حين رأوا آيات الله التى أيده بها من انقلاب العصا حية تسعى لتلقف ما صنعوا فى مشهد اجتمع فيه الناس وعلى رأسهم فرعون ، قال الله تعالى : (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)[١] وقال تعالى : (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)[٢]

وورد الفعل الماضى : ألقى فى هذين الموضعين دالاً على ما كان من حال ذلك السجود وكيفيته وسرعته وقوة اليقين التى لازمته حيث ألقوا "على وجوههم سجدا لله تعالى تائبين مؤمنين به عز وجل وبرسالة موسى عليه السلام"[٣] ، ودل على ذلك ما يتضمنه معنى الإلقاء فى ذاته من دلالة على الشدة والسرعة ، وما تضمنته صيغة بنائه للمجهول من كون ذلك الإلقاء صادرا عن قوة دفعتهم إليه دفعا فنشأت عنه تلك الاستجابة وذلك الاجتماع عليه "وكأنما ألقاهم مُلق لشدة خرورهم ، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا".[٤]

واتصل ذكر الصلاة وشأنها بذكر الأنبياء عليهم السلام وعبادتهم لله تعالى وإقامتهم الصلاة وأمرهم بها ، كما هو الحال فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا......)[٥] ، وداود عليه السلام : (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ

---

(١) سورة طه : الآية ٧.
(٢) سورة الأعراف : الآيات : ١١٩ : ١٢٢.
(٣) روح المعانى : الألوسى : ١٦ : ٥٣.
(٤) الكشاف الزمخشرى : ٢ : ١٠٣.
(٥) سورة الفتح : من الآية ٢٩.

فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) [١] ، وإسماعيل عليه السلام: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) [٢] ، وعيسى عليه السلام : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) [٣] ، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله فقد قال الله تعالى:(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) [٤].

اقتران ذكر إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة والإنفاق عامة:

واتصال ذكر إقامة الصلاة بإتياء الزكاة أو الإنفاق عامة ظاهرة ملحوظة لها شأنها ، فكثير من المواضع يرد فيها ذكر إقامة الصلاة مقدما ، ثم يعطف عليه إيتاء الزكاة ، على نحو ما يزخر به القرآن الكريم فى مواضع كثيرة كما فى قوله تعالى:(وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) [٥] ، وقوله تعالى : (لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...) [٦] "فقد جعل الله إقامة الصلاة مثالا لبذل النفس فى سبيله ، وجعل الإنفاق مثالاً لبذل المال فى سبيله ، واقتصر فى كثير من المواضع عليهما من جهة الأعمال الظاهرة" [٧].

اقتران ذكر الصلاة – صونالها- بالنهى عنها فى حال مخصوصة:

هذا ، وقد اتصل بيان شأن الصلاة فى أسلوب النهى بمجال تشريعى آخر فى جانب التحريم صوناً لها وحفاظاً على شأنها فقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا

---

(١) سورة ص : الاية ٢٥.

(٢) سورة مريم : الآيتان ٥٤ ، ٥٥.

(٣) سورة مريم : الآيتان ٣٠ ، ٣١ وأوصانى بالصلاة ، أى : وكلفنيها.

(٤) سورة الأنبياء : الآية ٧٣.

(٥) سورة البقر : من الآية ١١٠.

(٦) سورة المائدة : من الآية ١٢.

(٧) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت : ٥٧٣. دار الشروق . الطبعة العاشرة ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُوا)[1] ففى ذلك صون الصلاة والمصلين عن كل ما يخالف شأنها وما يجب لها من طهارة وخشوع ومحافظة ، وفيه : "إرشاد لإخلاص الصلاة التى هى رأس العبادة من شوائب الكدر ليجمعوا بين إخلاص عبادة الحق ومكارم الأخلاق"[2]

وفى أسلوب النهى"لا تقربوا" بلفظ "تقربوا" خاصة دون غيره من تعظيم شأنها مافيه ، فمعناه :"لا تغشوها ولا تقوموا إليها واجتنبوها،... ولا تقربوا مواضعها وهى المساجد"[3]

وبيّن الله تعالى فى سياق القصر مع التعليل والاستفهام والنداء سبب ذلك مفصلا وحكمته منه ، فقال تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)[4]

فبعد أن قصر بـ "إنما" جامعاً الخمر وغيرها من المحرمات فى إطار "عمل الشيطان" أمر باجتنابها ، ثم انتقل إلى قصر آخر بـ "إنما" معللا حكمة تحريم جانبى "الخمر والميسر" – خاصة – من بين ما ذكر قبلهما ، مظهرا ذكر الشيطان فى موضع الإضمار ، ليقترن ذكره هنا بإسناد إرادة إيقاع العداوة والبغضاء إليه ، وفيما قبله بكون الأعمال المذكورة رجسا من عمله ، تبشيعاً وتنفيراً ، مما يخالف ذكر الله وإقامة الصلاة ، ثم زاد بعد ظهور الحكمة والأدلة فقال : "فهل أنتم منتهون ، زيادة زجر وتأكيد وتقرير لدلالته.

معنى إقامة الصلاة وصلة ذلك المعنى ببيان شأن الصلاة:

ورد الأمر بإقامة الصلاة والثناء على من يقيمونها بالفعل :

---

(١) سورة النساء : من الآية ٤٣.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٥ : ٣٧.
(٣) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٥٢٨.
(٤) سورة المائدة : الآيتان ٩٠ : ٩١.

"أقيموا" و "أقم" و "أقمت" و "أقاموا" و "يقيمون" وغيرها مما يتعلق بمادته اللغوية ومشتقاتها في مواضع كثيرة بالقرآن الكريم.

ولهذه اللفظة خاصة صلة بالكثير من الأسرار المتعلقة بشأن الصلاة والمحافظة عليها ، والمداومة ، وما يجب فيها من الخشوع ، وحضور القلب ، وخشية الله ، وإحسان الركوع والسجود وتلاوة القرآن ، وذكر الله ، فضلا عن معانى التهيؤ والقيام إليها بنيّة صادقة فى طهارة تامة ووضوء أو تيمم.

فلفظ الإقامة مأخوذ من "أقمت الشىء إذا وفيت حقه"[(١)]، وقيل "يقيمون الصلاة" أى: يعدلون أركانها بأن يوقعوها مستجمعة للفرائض والواجبات... أو يواظبون عليها ويداومون"[(٢)] ، وقيل : "حفظها من أن يقع فيها زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العود إذا قوّمه ، أو الدوام عليها والمحافظة عليها ، كما قال عزَّ وعلا – الذين هم على صلاتهم دائمون ،والذين هم على صلواتهم يحافظون – من قامت السوق: إذا انفقت ،[(٣)] وأقامها ، ... لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشىء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون ، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشىء الكاسد الذى لا يُرغب فيه ، [وقيل معناها] : التجلدّ والتشمر لأدائها ، وأن لا يكون فى مؤديها فتور ولا توان من قولهم قام بالأمر ، وقامت الحرب على ساقها ، وفى ضده : قعد عن الأمر وتقاعد عنه : إذا تقاعس وتثبط أو : أداؤها فعبر عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت ، والقنوت : القيام ، وبالركوع وبالسجود ، وقالوا : سبّح إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها، ... وقيل للداعى : مصل تشبيهاً فى تخشعه بالراكع والساجد"[(٤)].

فإطلاق لفظ الإقامة فى ضوء ذلك مجاز ، من الاستعارة التبعية

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ١ : ١١٨.

(٢) نفسه.

(٣) نفق معناه راج ، ونفقت السلعة : غَلَتْ ورُغب فيها ...والنَّفاق ضد الكساد. انظر : لسان العرب : ابن منظور : مادة (نفق). دار صادر . بيروت. الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

(٤) الكشاف : الزمخشرى : ١: ١٢٩ : ١٣٢ . وانظر أيضا : روح المعانى. الألوسى : ١ : ١١٨.

حيث : "شبه تعديل الأركان بتقويم العود بإزالة اعوجاجه فهو قويم تشبيها له بالقائم ثم استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام التى صارت حقيقة فيها ، لتسوية المعانى ، كتعديل أركان الصلاة على ما هو حقها ... [وكذلك الحال فى التشبيه] بنفاق السوق ، كانتصاب الشخص فى حسن الحال والظهور التام ، فاستعمل القيام فيه والإقامة فى انفاقهم ، ثم استعيرت منه للمداومة فإن كلا منهما يجعل متعلقه مرغوبا متنافسا فيه متوجَّها إليه...[كما تضمن ذلك البيان لمعنى الإقامة حمله على المجاز المرسل] : فالقيام بالأمر يدل على الاعتناء بشأنه ويلزمه التشمر ، فأطلق القيام على لازمه ، وقد يقال بأنّ قام بالأمر معناه جدّ فيه وخرج على عهدته بلا تأخير ولا تقصير فكأنه قام بنفسه لذلك ، وأقامه أى رفعه على كاهله بجملته فحينئذ يصح أن يكون فيه استعارة تمثيلية أو مكنية أو تصريحية ، ويجوز أن يكون أيضا مجازاً مرسلاً، لأن من قام لأمر على أقدام الإقدام ورفعه على كاهل الجد فقد بذل فيه جهده... وكذلك (فإن) فعل القيام وهو الإقامة فعل لأجزائه [فهو مجاز مرسل بعلاقة الجزئية]"(١).

وذهب الشهاب الخفاجى إلى "أن الأمر بإقامة الصلاة يحتمل أن يكون – فضلا عن ذلك– من قبيل الاستعارة أو المجاز المرسل أو الكناية"(٢) ، واقتصر الزركشى على القول بأن قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلَاةَ)(٣) " من أحسن الاستعارة ، ... أى: أتمها كما أمرت"(٤).

وفسَّر أبو حيان لفظة "مقيم" فى قوله تعالى : (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ)(٥) فقال : دعاؤه بأن يقيم الصلاة وهو مقيمها : "إنما يريد بذلك الديمومة"(٦) ، وفى تفسير الجلالين لقوله تعالى : (وَيُقِيمُونَ

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ١ : ١١٨ ، ١١٩.
(٢) المسائل البلاغية فى كتاب الصاحبى لابن فارس : فريد النكلاوى : ١٠٧، مطبعة الأمانة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
(٣) سورة الإسراء : من الآية ٧٨.
(٤) البرهان فى علوم القرآن : الزركشى : ٣ : ٤٣٥ ، ٤٣٧.
(٥) سورة إبراهيم : من الآية ٤٠.
(٦) البحر المحيط : أبو حيان : ٥ : ٤٣٤. دار الفكر . بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

الصَّلاةَ)[1]"اى يأتون بها بحقوقها"[2].

وفى تفسير قوله تعالى : (اتْـلُ مَـا أُوحِـيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفحْشَاء وَالْمُنكَر...)[3] ، قال الألوسى : (" وَأَقِمِ الصَّلاةَ " أى : دوام على إقامتها)[4].

وجميع ذلك يوضح عناية الله عز وجل بشأن الصلاة وقدرها ؛ فلقد كثر ورود هذا اللفظ الجامع لهذه المعانى الجامعة التى لا تعارض مطلقا بينها ، بل يحسن أن يقال: يحتمل لفظ الإقامة أن يتضمن جميع تلك المعانى فى آن واحد، فهى تتصل بما يجب للصلاة- عماد الدين – من صفات ويدخل فى إطارها من واجبات ، كالقيام لها ، والوفاء بحقها، وتعديل أركانها ، والمواظبة والمداومة عليها ، وحفظها من أن يقع فيها زيغ ، وكذلك ما يتضمنه تفسير هذه المعانى بتشبيهها بتقويم العود ، أو تشبيه المحافظة عليها والتنافس فيها وتحسينها بالشىء النافق الذى تتجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون ، وكذلك ما تتصل به هذه المعانى من وجوب التشمر لأدائها تشمراً ليس معه فتور ولا توان ولا تقاعس فجميع ذلك من الأمور اللازمة لإقامة الصلاة ، والنداء الداعى إليها ا والتجمع لأجلها فى المساجد.

أما ما قيل من أنه تسمية لها بما تشتمل عليه من أجزاء كالقيام على سبيل المجاز المرسل فلا يتعارض مع ذلك أيضا لما للقيام بين يدى الله تعالى فيها من الشأن العظيم فقد قال تعالى فى الأمر بذلك وما يجب له : " وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ "[5]

ذلك أن الصلاة "مناجاة بين العبد وربه تبعث على مراقبة الله ، واستشعار عظمته، وتجعل الإنسان فى حذر دائم من مخالفة أحكامه ، أو التقصير فى حدوده ، وبذلك يكمل للروح تهذيبها وللنفس قوتها

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٣.

(٢) تفسير الجلالين (تفسير القرآن العظيم) : جلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى : ٢.

(٣) سورة العنكبوت : من الآية ٤٥.

(٤) روح المعانى : الألوسى : ٢٠ :٣٦٦.

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٣٨.

وصلاحها... وحسب المؤمنين فى العناية بها أنها الركن الأول من أركان الدين بعد شهادة التوحيد والرسالة ، وأنها أقدم عبادة عرفت مع الإيمان وحكيت عن الأنبياء والمرسلين"(١).

وهكذا تضمن لفظ "الإقامة" وما تعلق به من صيغ لغوية فى الاستعمال القرآنى العظيم جميع ما يلزم للصلاة من جوانب القصد والنية ، والمحافظة والمداومة ، والعناية بها على خير وجه فى إخلاص لله تعالى.

فاختيار هذا اللفظ له دلالته العظمى على بيان شأن إقامة الصلاة على النحو الذى شرعه الله وأوجبه ، وفيه من الإعجاز البلاغى ما يوضح جانبا من جوانب هذا الإعجاز ، كما اتضح جانب آخر منه فى سعة مدلول لفظ "الصلاة" نفسها حتى يمكن القول مع القائلين :"إن القرآن الكريم يستثمر أقل ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى ، وتلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجماله التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التى يسمونها مقام الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازا كله لأننا نراه فى كلا المقامين يجاوز سبيل القصد، .... فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى"(٢).

بلاغة بيان شأن الصلاة ببيان سجود جميع الخلائق لله تعالى :

فى إطار إبراز شأن الصلاة وما وردت خلاله من أساليب بلاغية اتخذ "السجود" مكانه الواضح من أعمال الصلاة لما يجتمع فيه من دلالات العبادة الحقة الجامعة للخشوع والتسبيح وغيرهما ، كما اتخذ مكانه بين أساليب البلاغة القرآنية.

ولقد اجتمع فى بيان هذا الجانب وشأنه أكثر من نوع بلاغى دال لبيان كون السجود أمرا كونيا شاملا انقياد جميع الخلائق لعبادة الله

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت : ٢٥٦.
(٢) النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز : ١٢١.

وخشيته تعالى ، وبيان كون كل ما فى الكون من عناصر مخلوقات عابدة وليست آلهة تعبد ، والاستدلال من ذلك بإقامة الحجة على من خالف الفطرة ، وارتكزت هذه الحجة على الاستدلال الحسى المرئى فى الكون ، فورد فعل الرؤية البصرية فى سياقها متجها إلى الخطاب العقلى المصحوب بها ، وورد ذلك فى إطار التعجيب من اجتماع هذه الأدلة الظاهرة والإعراض الذى يعترى بعض الخلق من بنى الإنسان.

وورد ذلك فى عدة أساليب بلاغية جامعة دلالاته.

فمن ذلك قوله تعالى :(أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ* وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[١].

فالسجود هنا ورد فى إطار مجموعة من المعانى المتعلقة بالانقياد والاستسلام فى: "وهم داخرون" ، والتواضع لله تعالى :"وهم لا يستكبرون" وخشيته وخوف عذابه: "يخافون ربهم من فوقهم" وطاعته عز وجل: "ويفعلون ما يؤمرون".

والمتصفون بهذه المعانى المجتمعة فى السجود هم : كل ما خلق الله تعالى من أشياء حسية لها ظلال مرئية ، وأخرى غيبية لم يرها الإنسان.

والإطار الجامع لذلك "استفهام" بالهمزة داخل على الفعل "يروا" مسبوقا بنفى مع توسط الواو بين الهمزة ولم.

و"إذا عُدِّى فعل الرؤية بحرف الجر "إلى"، كان المعنى الرؤية البصرية"[٢].

وقيام هذا الاستفهام على الرؤية الحسية البصرية مسبوقا بنفى ومصحوبا بالذكر المفصّل للدلائل الحسية وظلالها ، له دلالته على بلوغ الإنكار فى ذلك مبلغه ، فما يرى بالحواس يتعلق بما يفهم بالتدبر مما

---

(١) سورة النحل : الآيات ٤٨ : ٥٠ داخرون : منقادون.
(٢) البيان فى روائع القرآن : تمام حسان : ٢ : ٢٢٠ مكتبة الأسرة . ٢٠٠٣.

أشارت إليه "الواو" العاطفة بين الاستفهام ولم ، وإسناد فعل الرؤية إلى واو الجماعة له دلالته على العموم ، وكونه مضارعا له دلالته على استمرار ذلك فى الأوقات الممتدة والمتجددة فى كل حين.

وورود السجود فى صورة الحال"سُجَّدًا لله ، ثم فى صورة المضارع "ولله يسجد" ، تضمن معنى الغاية فى الأول فسجودهم متجه إليه جل شأنه، وغاياتهم ونياتهم متجهة إليه ، وفى الثانى متضمن معنى التوحيد الخالص بهذا التقديم للقصر أى لله وحده.

والعناية بالشمول تضمنت ذكر الجهات "اليمين – الشمائل – السماوات – الأرض"، وذكر ما اشتملت عليه "من شىء" و "من دابة" "والملائكة" فى إطار العناية بذكرها تفصيلاً ، وبذكر ضمائرها : فى "ظلاله" "وهم داخرون" "وهم لا يستكبرون" "يخافون" "ربهم" "من فوقهم" "ويفعلون" "ما يؤمرون" ، وكذلك ذكر حالها الملابسة لفعل السجود مما سبق بيانه.

أما ما قيل من كون معنى "سجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم ، وسجود غيرهم انقيادهم لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها ، (فـ) كلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بمعنى واحد"(١).

أما إفادة "ما" لغير العقلاء خاصة وسر تغليبها " فلأنه لو جىء بمَنْ" لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة ، فجىء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم"(٢).

ويلفت النظر فى ذلك الأسلوب المبين شأن سجود جميع الخلائق لله تعالى وروده فى إطار هذا النوع من الاستفهام ، والعطف ، مقترناً بفعل الرؤية الحسية إقامة للدليل وبيانا لدرجة ظهوره وشموله فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم.

كما يلفت النظر فيه العناية بعطف الخاص بعد العام ، وكون هذا

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٤١٢.

(٢) نفسه

الخاص المعطوف مختصا فى إعادة ذكره بمزيد الإشارة إليه على نحو يؤكد بيان قدر من الدلائل المؤكدة دلائل الاحتجاج وظهور البراهين.

ففى الاستفهام السابق ، ورد عطف الملائكة على "مافى السموات وما فى الأرض، "تفصيلا" [١]، ولعل ذلك لما هو معروف ظاهر من طاعتهم وسمو شأنهم مطلقا ، فإذا كانوا على تلك الحال سجودا وخوفا وتواضعا فما هو شأن غيرهم ممن يقترفون المعاصى. ؟

وفى موضع آخر نجد عطف الخاص على العام يدعو لتدبر ما اشتمل عليه الخاص من آيات حسية مرئية ظاهرة ، فى قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) [٢] ، وقد قيل "إن [هذا] إفراد لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها بحسب الظاهر فى بادئ النظر القاصر ، كما قيل : أو لأنها قد عُبدت من دون الله تعالى إما باعتبار شخصها أو جنسها" [٣].

ولعل هذا الاستفهام يتضمن الإنكار القائم على ظهور الأدلة وقيام الحجة من خلال الدلائل الحسية الظاهرة ـ كما سلفت الإشارة ـ "فهو وسيلة محاجة وإقناع (يتناول) الأدلة العقلية والأدلة الحسية . فالأدلة الحسية تلفت النظر إلى الظواهر الكونية ، لاستخراج العبرة منها ، والاستدلال على قدرة الله سبحانه وتعالى" [٤].

ولعله ـ يتضمن إلى جانب ذلك ـ التعجيب من حال الإنسان الذى أشير إلى امتناعه وعدم دخوله فى عموم هذا السجود بقوله تعالى: (وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ) ثم قوله تعالى فى شأنهم : (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ...).

---

(١) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى عثمان بن صالح : ٢ : ٢٢٧ مطبعة الاستقامة القاهرة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.

(٢) سورة الحج : الآية ١٨.

(٣) روح المعانى : الألوسى : ١٧: ١٢٤.

(٤) البيان فى روائع القرآن : تمام حسان : ٢ : ٢١١.

ويرد عطف الخاص على العام حثا على تدبر عجيب صنع الله فيه ، وما يحققه ذلك من تأكيد التعجيب الذى تتضمنه دلالة الاستفهام ، والإنكار على من لم يدخل فى إطار تلك الرؤية وذلك التدبر وما يفضى إليه من السجود والتسبيح ، كما فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)(١).

وإتباع عطف الطير خاصة على ما قبلها من العام ، بقوله تعالى : "كل قد علم صلاته وتسبيحه" إيضاح لاختصاص كل مما ذكر بصلاة وتسبيح على نحو يعلمه الله تعالى ؛ فهو "استئناف جيء به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج فى عموم "من فى السموات والأرض" فى التنزيه ، ورسوخ قدمه فيه(٢)، ذلك أنه "لا يبعد أن يلهم الله – تعالى – الطير – دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها(٣).

ويرد بيان شأن السجود وكونه لله وحده فى إطار آخر يستهل فيه بخبر داع إلى تدبر آيات موجبة له ، لينتقل منه إلى نهى مستمِّد غايته ومعناه من دلالة ذلك الخبر ، ثم ينتقل إلى الأمر بالسجود لله الذى خلق الآيات المتقدم ذكرها والدعوة إلى تدبرها والنهى عن السجود لها.

وذلك فى قوله تعالى:(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(٤).

وفى ذلك من التقديم قوله عز وجل "ومن آياته" بيانا لشأن الآيات الداعية إلى عبادة صانعها ، وتأخيرا للمخلوقات التى لا تُعبد بل تتدبر للتوصل إلى الحق . وقوله عز وجل " إياه تعبدون" قصرا للعبادة على الله وحده ، حيث "أمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً إن

(١) سورة النور :الآية ٤١.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ١٨ : ٣٧٨.
(٣) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٧٠.
(٤) سورة فصلت : الآيتان ٣٧ ، ٣٨.

كانوا إياه يعبدون ، وكانوا موحدين غير مشركين"[١].

وفيه : إظهار لفظتى : الشمس والقمر ، – فى إطار النهى– ، فى موضع الإضمار ، بيانا لكونها آيات من صنع الخالق الذى يُسجد له وتأكيدا لدلالة النهى عن السجود لها وزيادة تنبيه إليه لخطورته.

وفيه : الجمع بين النهى والأمر المتقابلين فى إطار ذكر السجود مضارعا وأمرا (لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ) (وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ) بيانا لشأن السجود لله وحده ، وتأكيدا لوجوبه ونهيا عما سواه.

وفيه: الشرط القائم على الإيجاز بحذف جوابه اكتفاء بدلالة السياق فى : "إن كنتم إياه تعبدون" ومعناه : فاسجدوا له جل شأنه ، والقصر، كما اتضح من قبل.

وفيه: عموم الخطاب فى ضمير الجمع فى قوله تعالى : "لا تسجدوا" "واسجدوا" "إن كنتم".

كما يرد بيان شأن السجود ووجوبه باقترانه بذكر جانب واحد جامع لدلائل قدرته وعلمه فى إطار من الإعجاز الدال أيضا فى سياقه على كمال تلك القدرة ، كما فى قوله عز وجل حكاية عن "الهدهد" وما كان من شأنه : (أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)[٢] ، وذلك بعد قوله تعالى حكاية عنه أيضا: (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ)[٣].

فالإشارة إلى إخراج الخبء مظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، الجامعة لكل ما ماثلها واختلف عنها أو كان فوقها ، وناسب ذكرها "الهدهد" خاصة لما هو معلوم من "معرفته [مواضع] الماء تحت الأرض ، وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السماوات والأرض جلّت

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٤٥٤.
(٢) سورة النمل : الآية ٢٥. يخرج الخبء : الشئ المخبوء المستور.
(٣) سورة النمل : الآية ٢٤.

قدرته ولطف علمه"[1].

هذا فضلاً عما كثر ذكره من دلائل قدرته ، وسجود جميع الخلائق له جل شأنه فى مواضع أخرى من السياق القرآن الكريم بيانا لشأن السجود ، كما فى قوله تعالى : (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)[2] فى سياق خبرى تعددت فيه آلاء الله فى تجاور وتتابع ، وورد كل منها على نحو يبرز شأنه والغاية منه ، والمظهر الداعى إلى تدبره والمعين عليه.

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ١٤٤.

(٢) سورة الرحمن : الآية ٦ . وقيل : النجم النبات الذى ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول ، "والشجر" : الذى له ساق.

القسم الثانى

فى هذا القسم تنتقل الدراسة إلى تحليل مجموعة من الأساليب البلاغية التى ورد فى إطارها بيان شأن الصلاة ، متجهة فى ذلك إلى ما احتل بينها مركز الصدارة ، وهو "أسلوب القصر" ، باحثة طرقه المتنوعة بتنوع الداعى إليها فى مقام الكلام وما يتصل به من أحوال ، وباحثة كذلك ما تتضمنه من وجوه وأساليب بلاغية أخرى حققت أغراضه.

ثم منتقلة إلى أسلوب " القسم" الذى يوضح فى ضوء تحليله وتحليل ما ورد خلاله من أساليب بلاغية أخرى شأن وهول المقسم به أو المقسم عليه أو كليهما مما يتصل بالصلاة وشأنها.

وتنتقل – بعد ذلك – إلى دراسة "الشرط" الذى تعلق بالكثير من الأساليب البلاغية الأخرى كتعدد الوصف فى إطاره ، وكأسلوب الكناية ، والاستفهام ، والنداء وغيرها ، مما تتطلب دراسته إدراجه فى أقسام دراسة تلك الأساليب ، لكونه تابعا لها ، وستقتصر دراسته هنا على ما يتضح فيه كونه متبوعاً ضاماً لغيره من الأساليب بشكل مميز.

كما تنتقل بعد ذلك إلى دراسة أساليب "الالتفات" ، ودورها فى بيان شأن الصلاة ثم دراسة "التشبيه" و"الاستعارة".

فسيتضمن هذا القسم ما يلى:

- أساليب القصر ، ومجالات استعمالها ، وتعلقها بغيرها من الأساليب والعناصر اللغوية المظهرة شأن الصلاة.
- بيان شأن الصلاة فى إطار أسلوب "القسم".
- بيان شأن الصلاة فى إطار أسلوب "الشرط" وسعة هذا المجال لاستيعاب الكثير من الأساليب المتفرقة فى البحث.
- أسلوب "الالتفات" وبيان شأن الصلاة.
- دور التشبيه فى بيان شأن الصلاة والمصلين.

- دور الاستعارة فى بيان شأن الصلاة وتجسيد أجرها.

بيان شأن الصلاة فى الأسلوب القرآنى بطريق (القصر):

وضحّ الأسلوب القرآنى الكريم شأن الصلاة فى إطار أسلوب القصر.

فلقد ورد هذا الأسلوب فى مجال جامع لذكر ما تصدر عنه الصلاة من أسس الإيمان، وبيان ما يخالف هذه الصفات ويخرج عن إطارها تمييزاً وتأكيداً عن طريق التصريح أو التعريض.

والقصر باستعمال "إنما" فى هذا المجال أشد ظهورا من غيره؛ وربما رجع ذلك إلى ما يتميز به هذا الاستعمال – بصفة خاصة – من كونه يستخدم – أصلا – فيما من شأنه: "أن يكون ما استعمل له مما يعلمه المخاطب ولا ينكره"(1)، وما يتميز به كذلك من تجاوز ظاهر الحكم والإفادة به، إلى غرض آخر، تلويحاً بمعنى مستفاد منه ومبنى عليه عن طريق ما يتضمنه من التعريض المفهوم من تأكيد ما يرد فى رحاب "إنما" مما ينفى – بطبيعة الحال – عن كل ما سواه.

فنظرا لما اقتضاه حال الخطاب فى القرآن الكريم من ظهور الأدلة الموجبة للإيمان، وما اقتضاه من ثناء على المصدّقين، وتعريض بذم المعاندين، اتضح دور استخدام "إنما" فى إطار هذه الحال؛ فجاءت – فى مجال بيان شأن الصلاة – باعتبارها عماد الدين – متجهة إلى الألفاظ الجامعة لمعانى الإيمان وأسسه وما يتعلق به من صفات لا تتحقق – معنويا وعمليا – إلا فيمن آمن واتصف بجانبى هذا الإيمان عقيدة وعملا، فصار إثبات ما يرد مؤكدا ومقصوراً فى إطارها منفياً – بطبيعة الحال – عمن خالف هذه الصفات، وفى ذلك قام التعريض بما يحمله من بلاغة وإيجاز بتحقيق غايات أسلوب القصر من استبعاد وذم من خالفوا تلك الصفات المؤكدة، مما لا يخفى شأنه ومقدار بلاغته.

---

(1) الإيضاح فى علوم البلاغة: الخطيب القزوينى ١: ٢٢٠. دار الكتاب اللبنانى. بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

القصر بإنما فى إطار ذكر الألفاظ الجامعة الدالة على شأن الصلاة :

ومن هنا ورد أسلوب القصر بإنما – فى مجال بيان شأن الصلاة والمصلين – مؤكدا صفات الإيمان والمؤمنين ، بالتوقف لدى ألفاظ جامعة ، تتخذ مواضعها الواضحة فى إطار هذا القصر ، ليرد تفصيل ما يتعلق بها من الجوانب واضحا ومؤكدا.

من ذلك استخدم إنما فى إطار ذكر المعانى والصفات المتصلة بالإيمان ، والإنذار ، والتزكى والتطهر ، وتعمير المساجد ، وخشية الله تعالى ، والولاية ، مقصورة أو مقصورا عليها.

القصر بـ (إنما) فى تعلقه بمعانى (الإيمان) وصفاته وبيان شأن الصلاة فى ذلك :

ومما ورد فى ذلك متصلا بالإيمان ، حقيقته وصفاته ، قول الله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).(1)

فقصر المؤمنين على ما ذُكر من الصفات ، اتجه إلى لفظ جامع لجوانب الإيمان عقيدة وعملاً ، واستخدم فى ذلك صيغة اسم الفاعل وجعلها "مقصوراً" ، فجُمع فى إطار اسم الفاعل معنى الفعل ومعنى الإسناد إلى من يقوم به ، وجعله عاما فى من كل من يتصف بما ذكر بعده ، فورد فى صيغة جمع المذكر السالم.

أما الصفات المقصور عليها ؛ فقد وردت مقسّمة فى جانبين متضمنين العقيدة – المذكورة أولا لكونها الأساس – ثم العمل الذى هو مظهرها المحقق لوجودها.

---

(1) سورة الأنفال : الآيات : ٢ : ٤. وجلت : فزعت لذكره استعظاما له وتهيبا من جلاله وعزة سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه . الكشاف : الزمخشرى: ٢ : ١٤٢ . درا الفكر. ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

وظهر شأن الصلاة فى ذلك متصدرا الجانب العملى ليحتل مكانه من أسلوب القصر عقب ذكر الوصف بأسسه العقدية.

ولقد أفاد استخدام "إنما" فى ذلك: إثبات معنى الإيمان الكامل ، فقوله تعالى :(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) "أى : الكاملو الإيمان"[١] ، فجاء – محققاً فى أصحابه "المؤمنين" – مقصورا على صفات : "الخشية والإخلاص والتوكل [وهى من أعمال القلوب] ، والصلاة والصدقة [وهى من أعمال الجوارح]"[٢]

ولقد أتاح استخدام الموصول "الذين" بعد المقصور تعداد هذا الوصف وبيان شأنه؛ حيث ذكر مقترنا بالجانب الأول : وجل القلوب وازدياد الإيمان بسماع تلاوة القرآن ، والتوكل على الله تعالى ، ثم مقترنا بالجانب الثانى : إقامة الصلاة والإنفاق.

ثم وردت الإشارة بقوله تعالى : "أولئك"، التى هى للبعيد ، بياناً للشأن ، وإظهارا لمقدار سموه وفضله فى إطار أسلوب مؤكد بمصدره الموصوف (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) أى : إيمانا حقا، أو: يكون "حقاً مصدرا موكّدا – بذاته – للجملة"[٣]، ليلتقى فى ذلك التأكيد والمبالغة التى تفيدها "إنما" فى مستهل الآية وما ذكر فى إطارها ، بهذا التأكيد فى المختتم مقترنا بما أتبع به من ذكر الأجر.

ولما كانت "إنما" لا تستخدم إلا فيما من شأنه أن يكون معلوماً لدى المخاطب – كما سلفت الإشارة – فإن معنى الحصر هنا قد حقق غرض التعريض ومعناه؛ بخروج من لم يتصفوا بما ذُكر من هذه الصفات المعلومة من دائرة الإيمان تقريعا لهم ، وإقامةً للحجة عليهم ؛ فلا شك أنهم يعلمون أحوال قلوبهم ، ويستشعرون ما يكون فيها من صفات "إذا ذُكر الله" "و إذا اتليت عليهم آياته" من النفور والاشمئزاز كما توضحه آيات أخرى ، وكذلك ما يكون من حالهم إذا دعوا إلى الصلاة وأمروا بالإنفاق فى سبيل الله ، من إعراض أو مراءاة كما بينته

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ١٤٢.

(٢) نفسه.

(٣) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى عثمان بن صالح : ٢ : ٤٦.

آيات أخرى كذلك.

ولا يخفى فى جانب العناصر التعبيرية الواردة هنا ، ما أشار إلى خفاء الوصف المتعلق بالقلوب من إيضاح معنى تحقق الوصف بما لا يدع مجالاً للشك فيه ؛ فوردت "إذا" مع الجانبين: ذكر الله ، وتلاوة آياته ، وهى شرط متضمن معنى الظرف – تحقيقاً وتأكيداً – فهى تؤكد معنى التلازم بين الشرط وجوابه ، وترافق ذلك زمنيا فى لحظة واحدة ، (إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) ولا يخفى ما فى ذلك من حُسن التقسيم لأجزاء الأسلوب الوصفى بما يأخذ بالأيدى لإيضاحه ، فهو أساس الجانب العملى الوارد بعده مصدَّرا بذكر إقامة الصلاة ومتلوا بذكر الإنفاق.

هذا فضلاً عما تضمنه هذا الجانب من قصر آخر بتقديم متعلقات الفعل "يتوكلون" عليه مما يفيد الأساس العَقَدِىّ لذلك الوصف ؛ مشيراً الى معنى توحيد الله واتجاه الجوانب الوصفية المذكورة قبله وبعده إليه.

وهذا – أيضا – بالإضافة إلى ما ورد من القصر بتعريف الطرفين وبتوسط ضمير الفصل فى قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا).

واتصلت العناصر التعبيرية – فى إطار جميع ذلك – بدلالات الصيغ الفعلية الماضية ، على التحقق وتأكيد الحدوث فى : الألفاظ : ذُكر – وجلت – تليت – زادتهم ، والصيغ المضارعة فى دلالتها على استمرار تلك الأوصاف وتجددها فيهم فى : "يتوكلون – يقيمون – ينفقون".

أما الفصل بين قوله تعالى:(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) ، وما ورد قبله من قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...) الآية ، فلما بينهما من قوة الاتصال المبنية على علاقة الاستئناف ، وكأن حالهم العجيبة دعت إلى مزيد بيان ناشئ عن الاستفسار عن شأنهم ومن هم هؤلاء ؟ فورد قوله تعالى : (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) الآية ، بياناً لذلك الشأن الخفى المتعلق بالقلوب فى إظهار عملى محقّق له فى الحواس ، وقد تكون تلك الصلة قائمة على علاقة الإبدال لما فيه – أى : الذين

يقيمون الصلاة – من وفاء بإظهار خفاء الأول في هذا الجانب العملي.

ثم ورد الفصل بين ذلك وما تلاه من قول تعالى: (أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ...) الآية، بيانا استئنافيا آخر لما قد يتبادر من تساؤل عن شأنهم وحكمهم عند الله ومالهم من أجر ومنزلة.

أما الوصل بالواو فقد اتضح دوره في بيان التناسب بين الجمل الخبرية المتعلقة بالزمن المستفاد من الشرط والمتعلق بالوصف المتقدم "المؤمنون"، في قوله تعالى: (إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

وكذلك الوصل بين ما اقتضاه ذلك الإيمان من جانب العمل الوارد بعده، ثم جانب الجزاء، وجميعها جمل خبرية بينها تناسب، مستهلة بما له حكم إعرابي ممتد إلى ما عُطف عليه بعده.

اقتران الإيمان بذكر السجود والتسبيح وبيان شأنهما في إطار القصر (بإنما)، ودور الكناية في ذلك:

ويتضح بيان شأن الصلاة من خلال استعمال "إنما" في أسلوب القصر المتضمن تأكيد صفات الثناء في المقصور عليهم من خلال اتصافهم بمظهر عملي دال في أسلوب الكناية عن صفتي الإخلاص والصدق، على شأنهم وشأن ما يترتب عليه من الجزاء.

ففي قوله الله تعالى: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١)

قصرت "إنما" الإيمان الوارد بصيغة المضارعة لدلالة الاستمرار والتجدد، على هؤلاء الذين اتخذ التصريح بذكرهم مظهرا عمليا يتصفون به، ويدل على تحقق ذلك الإيمان فيهم في قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)

(١) سورة السجدة: الآيات: ١٥ : ١٨.

وهو تعبير مرتكز على البدء بالموصول المتيح تعدد الوصف بعده فيما ورد هنا ، وفي قوله : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) وهذا التجافي بدوره دال على التكرر والتعدد والاستمرار ، ومتضمن "كناية" دالة على خشيتهم وخشوعهم وثبات الإيمان وأثره في قلوبهم مما يستفاد من سابقة.

وذكر الموصول "الذين" - فضلاً عن إتاحة الوصف المتعدد بعده - مشير إلى وجوب ما بعده من الجزاء لمستحقيه الذين وصفوا بذلك الوصف المتعدد كما هو معلوم.

أما نفي العلم عن الأنفس الواردة نكرة مستغرقة جميع أنواع الأنفس وأفرادها ، في إطار تعظيم شأن الجزاء والدلالة عليه في قوله تعالى :(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) فقد أفاد الإشارة إلى تعظيم شأن تلك الصلاة وما اقترن بها من ذكر الله ، ببيان شأن ما ترتب عليها من ذلك الجزاء ، "وعن الحسن أنه قال : أخفى القوم أعمالا في الدنيا فأخفى الله تعالى لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، أي أخفى ذلك ليكون الجزاء من جنس العمل"(١).

وفي التعبير عن ذلك الجزاء بقرة العين ، بإضافة القرة إلى أعينهم دون غيرها "تنبيه على أنّ ما أخفى لهم في غاية الحسن والكمال"(٢).

أما العناصر اللغوية الأخرى التي حققت دلالات الأسلوب وغاياته في إطار هذا القصر فهي متخذة مواقعها من جمله وألفاظه ؛ مما يتضح في ذكر "المضاجع" التي تتجافى عنها "جنوبهم" ، فهي موضع التماس الراحة ، في وقت السكينة ، والجنوب مجاز مرسل عن أصحابها ، بعلاقة الجزئية لخصوصيتها الدالة على الافتقار إلى تلك الراحة وشدة احتياجهم إليها.

وفي لفظ "يدعون" دون غيره "الظاهر أن المراد به المعنى

---

(١) روح المعاني : الألوسي : ٢١ : ١٣٠.
(٢) السابق : ١٢٩.

المتبادر ، وقيل : المراد به : "الصلاة" ، فهو محقق دلالتي الخوف والرجاء في نفوسهم. وإضافة لفظ "ربهم" إلى ضميرهم ، مما لا تخفى فيه دلالة التشريف والتكريم. أما الفاء" في قوله تعالى : "فلا تعلم" فظاهرةٌ في بيان الربط ودلالة ترتب الجزاء التالي لها على ما سبقها من العمل الذي استوجبه.

ودور القصر في حصر ذلك وبيانه محدَّدا مقصوراً على هؤلاء ، يتضح خلاله ما حققه من التعريض بسواهم.

ويعين سياق الآيات على بيان معنى التعريض هنا وغايته ، فهي واردة بعد ذكر التكذيب بالبعث: (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)[١]، وقول المنكرين بعد معاينة العذاب: (فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[٢]، وقول الله عز وجل: (وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا....)[٣] الآية. ثم بيان العذاب ، ليرد بعد ذلك أسلوب القصر – هنا – معرضاً بهؤلاء مبيناً في ضوئه "عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى ، والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه"[٤].

وتجتمع دلالات ذلك كله لبيان شأن الصلاة ، والثناء على المبادرين إلى طاعة الله عز وجل بمجرد تذكر آياته بالسجود له من خلال الإشارة إليه باقترانهما بـ "إذا" في قوله تعالى : (إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) وما اقترنت به من حال "وهم لا يستكبرون" دالة على منطلق استجابتهم وسجودهم.

ثم يزداد ذلك الشأن بيانا في انتقاله إلى إطار آخر غير حصوله بمجرد تذكر الآيات ، وهو اتجاههم إلى صلاة الليل وتعلقهم بها تعلقاً جعلها أحب إليهم من راحة أبدانهم. ثم اقتران ذلك كله بما عُطف عليه من الإنفاق الذي يلازمه في الكثير من المواضع.

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٠.
(٢) سورة السجدة : من الآية ١٢.
(٣) سورة السجدة : من الآية ١٣.
(٤) روح المعاني : الألوسي : ٢١ : ١٢٨.

بيان شأن الصلاة فى إطار القصر "بإنما" من خلال الاقتران بذكر (الخشية، والتزكى) :

ويتضح بيان شأن الصلاة بورود ذكرها فى سياق القصر بإنما فى إطار قصر غاية الدعوة على المصلين انطلاقاً من استجابتهم للإنذار ، وخشيتهم لله تعالى ، وتحقق آثار ذلك فى نفوسهم من خلال بيانه فى أسلوب قصر آخر بإنما.

وفى ذلك يتتالى القصر بإنما على نحو خاص متعدد الدلالات.

فقد قال الله تعالى: (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)(1).

فقصر صفة الإنذار على الذين يخشون ربهم بالغيب – دون سواهم تعريضا – اتخذ مظهره العملى – مبيّنا شأن الصلاة – فى قوله تعالى : "وأقاموا الصلاة" ، وما عطف على ذلك ، زاد بيان شأن الصلاة ظهورا ، فى أسلوب الشرط بـ "مَنْ"، وأسلوب قصر ثانٍ بإنما واقع فى جوابه فى قوله تعالى : (وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ) ، وهذا بدوره مرتبط بما قبله ارتباط إظهار أثر الصلاة فى نفوس المصلين ، وهو مذكرٌ بما يؤكده من قول الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ)(2) ومعناه: (ومن تطهّر بفعل الطاعات وترك المعاصى ، (فـ) هو مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكى".(3)

ولا يخفى ما فى أسلوبى القصر فى تتابعهما هذا ، واتصالهما اتصال المؤثر بأثره من الحث والترغيب ، فضلاً عما يتضمنه القصر الثانى – أيضا – من التعريض بمن لم يتزكّ بل تدنس بأدناس المعاصى والرذائل ،والتعريض بعاقبته المقابلة لعاقبة من تزكى.

(إنما) وبيان شأن الصلاة فى إطار جامع آخر:

ومما ورد فيه بيان شأن الصلاة بطريق القصر بـ "إنما" ، الثناء

(1) سورة فاطر : من الآية ١٨.
(2) سورة الأعلى : الآيتان : ١٤ ، ١٥.
(3) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٣٠٥.

على من "يعمر مساجد الله" ، وقصر تلك الصفة على مخصوصين فى قوله تعالى :(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَـئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [١].

والمقصور عليه هنا – أيضا – اتجه بيانه بالوصف الجامع له من خلال ذكر الإيمان "بالله واليوم الآخر" والعمل فى "وأقام الصلاة وآتى الزكاة" ثم عُطف على ذلك ما يؤكد أسس الإيمان ونتائجه فى المقصور عليه بأسلوب قصر بطريق آخر فى قوله تعالى : "ولم يخش إلا الله".

فإقامة الصلاة هنا اتخذت بياناً لشأنها من ذلك المنطلق الذى ذكرت فيه مواضع الصلاة "المساجد" وعمارتها المستمرة فى صيغة المضارع "يعمر" ، وصدورها عما عطفت عليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما يؤكده فى القصر الآخر : "ولم يخش إلا الله".

واجتماع الإيمان وإقامة الصلاة والخشية تضمنتها أساليب القصر سالفة الذكر بإنما كذلك – فيما تقدم – ، مما يؤكد ذلك الشأن ، وغاية القصر ، وتمييز فضل الصلاة والمصلين والتعريض بمن خرج عن ذلك الحصر.

بيان شأن الصلاة فى إطار (إنما) ودور "البدل" فى إيضاح ذلك الشأن:

ووردت "إنما" – فى ذلك – متعلقة بذكر معنى الولاية فى قول

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٨. والعمارة تتناول رمّ ما استرمّ منها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها للعبادة والذكر ، ومن الذكر درس العلم بل هو أجله وأعظمه ، وصيانتها مما لم تبنَ له المساجد من أحاديث الدنيا فضلا عن فضول الحديث. وعن النبى – صلى الله عليه وسلم – : "يأتى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، لا تجالسوهم ، فليس لله بهم حاجة" وفى الحديث : "الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش" وفى الحديث القدسى :"إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وأنّ زوّارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهّر فى بيته ثم زارنى فى بيتى ، فحق على المزور أن يكرم زائره" ، وعنه عليه الصلاة والسلام : "من ألف المساجد ألفه الله". الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ١٧٩.

الله تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[(١)].

فبيان شأن الصلاة هنا موضَّح في أسلوب البدل بقوله تعالى : "الذين يقيمون الصلاة" فهو بيان بطريق البدل مما قبله في "والذين آمنوا" الوارد في إطار العطف، فوفاء ما اشتمل عليه هذا البدل من الوصف بإقامة الصلاة ببيان معنى المبدل منه في قوله "والذين آمنوا" حقق جانبا هاما من جوانب القصر ، وهو تحديد صفة المعطوف على المقصور عليه لعظم شأنه ، تمييزا له عن غيره بأفضل أعماله. وهو قصر يتضمن تعريضا – كذلك – بكل من لم يتصف بما ذكر في إطار هذا القصر ، وكأنه قيل: "لا تتخذوا أولئك أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم ، إنما أولياؤكم الله تعالى ، ورسوله – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنون ، فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم إلى الغير".[(٢)]

القصر بالنفي مع الاستثناء وبيان شأن الصلاة في إطاره :

يرد النفي مع الاستثناء مفيدا القصر ومبينا شأن الصلاة في قول الله تعالى: (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ).[(٣)]

فقد قام النفي والاستثناء هنا ببيان دلالات امتناع قبول النفقات معللا ذلك بالكفر ، ثم عطف على ذلك بالنفي والاستثناء بيانا لكيفية متعلقة بالصلاة في هؤلاء الذين لا (يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى) ، ثم عطف بنفس الأسلوب نفيا واستثناء في: (وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ). فالتعليل اتخذ وضوحه وتأكيد دلالته من خلال القصر المبين سبب عدم القبول تفصيلاً.

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٥.

(٢) روح المعاني : الألوسي : ٦ : ٣٣٣.

(٣) سورة التوبة : الآية ٥٤. وكسلهم هنا لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابا ولا يخشون بتركها عقابا فهي ثقيلة عليهم.

ملاءمة القصر بالنفى مع الاستثناء مقام الكلام هنا :

وإذا كان القصر بالنفى والاستثناء أصله أن يستعمل فيما "يجهله المخاطب وينكره"[1] ، فقد لاءم ذلك القصر هذا المقام الخفيّ المتصل بما لا علم لأحد به لانطوائه على أسباب غيبية بالنسبة إليه وهى: أسباب عدم قبول الله تعالى الإنفاق ، من انطواء الصدور على الكفر ، وما يعتريها من استثقال الصلاة والكسل حال أدائها وما يتعلق به من مراءاة الناس ، ثم ما يكون حال الإنفاق المتحدث عنه هنا من كراهة فعله.

فكلها أسباب متعلقة بنفوس أصحابها ، وترتب عليها عدم قبول نفقاتهم ، ووردت الصلاة وإتيانها حال الكسل لا غيره دليلاً حسياً بارزاً ضمن ما ذكر من أسباب عدم القبول.

وإذا فُهم ذلك فى ضوء السياق القرآنى العام الذى تقترن فيه إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة كدليلين عمليين على الإيمان الصادق ، اتضح كون استثقال الصلاة متصلاً هنا بالكفر وكراهة الإنفاق وكون ذلك سببا فى عدم قبول هذا الإنفاق.

تعلق سياق ذكر (الصلاة) بأسلوب القصر تقديما :

ورد بيان شأن الصلاة فى إطار تعدد الوصف مع العطف بيانا لما أوحى الله تعالى إلى أنبيائه من (فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ) فى جمع شامل للغاية من ذلك بأسلوب القصر معقبًا به على ما تقدم ذكره بقوله تعالى: (وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)؛

وذلك فى قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ).[2]

ويبين صاحب روح المعانى ما يتضمنه معنى قوله تعالى : "لنا عبدين" بتقدم الجار والمجرور "لنا" على اسم الفاعل عابدين بقوله: أى : " وكانوا لنا خاصة دون غيرنا عابدين" ، لا يخطر ببالهم غير

---

(١) الإيضاح : الخطيب القروينى : ٢١٨.

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٧٣.

عبادتنا كأنه تعالى أشار بذلك إلى أنهم وفوا بعهد العبودية بعد أن أشار إلى أنه سبحانه وفى لهم بعهد الربوبية" (١).

وورود ذكر الصلاة هنا ضمن ما أوحى الله به إلى أنبيائه معطوفا على "فعل الخيرات" ومتبوعا بعطف "إيتاء الزكاة" فى إطار عطف الخاص على العام ، إيضاح لشأنها بذكرها على هذا النحو المبين شأن الموحى به من الخيرات ، وورودها فى محل الصدارة – كما هو مألوف – ثم إظهار هذا الشأن ببيان كونه داخلا فى إطار التوحيد الخالص المسند إلى الأنبياء المتقدم ذكرهم عليهم السلام "أى : أوحينا إليهم أن تفعل وتقام وتؤتى منهم ومن أتباعهم" (٢).

وقريب من ذلك ورود القصر بالنفى والاستثناء بيانا لشأن العبادة عامة ، وورود ذكر الصلاة مقترنة بحال الإخلاص لله تعالى فى قوله عز وجل: (وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) (٣).

بيان شأن الصلاة فى إطار أسلوب (القسم) بها وبأوقاتها:

وأسلوب القسم – كما هو معلوم – من أساليب التعظيم والتهويل ، والقسم من الله تعالى بآياته يرد فى إطار داع إلى تدبر هذه الآيات وما تنطوى عليه من عظيم القدرة ، ومشعر بهول المقسم عليه وخطره ، أو عظيم شأنه وقدره.

وقد يرد نص القسم القرآنى صريحاً أو مقدراً.

وفى إطار بيان شأن الصلاة ورد القسم القرآنى مقدَّرا ، مفهوماً بدلالة السياق ووجود اللام الموطئة له ، كما فى قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

(١) روح المعانى : الألوسى : ٩ : ٦٩.
(٢) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى عثمان : ٣ : ٧٥.
(٣) سورة البينة : الآية ٤.

الأنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ). (١)

فالنص على المقسم به هنا محذوف ، واللام فى قوله تعالى:(لَئِنْ أَقَمْتُمُ) موطئة له، ورأى الأخفش أن "اللام الثانية (على معنى) قسم آخر "(٢).

وهذا الميثاق الغليظ المأخوذ على المخاطبين هنا مبدوء بقوله تعالى: (لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ) مما يظهر شأنها فى إطار هذا الميثاق الذى صرح فيه بهذه الجوانب المخصوصة مستهلا بالقسم ، ومختتما ببيان عاقبة الالتزام به أو نقضه.

وورد نص المقسم به صريحا – فى إطار تعظيم شأن الصلاة – بألفاظ تدل على الصلاة نفسها أو على أوقاتها.

ومن ذلك ما ورد به القسم فى إطار العطف لتعدد المقسم به مصدَّرا بالقسم بالفجر فى قوله تعالى: (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)(٣).

فقد أقسم الله – سبحانه وتعالى – هنا – "بالفجر كما أقسم بالصبح فى قوله تعالى – والصبح إذا أسفر – والصبح إذا تنفس – وقيل : بصلاة الفجر ".(٤)

والمقسم عليه بذلك القسم ليس مصرَّحا به ، بل تولى السياق بعده بيانه " فهو موضوع الطغيان والفساد ، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد ، فهو حق واقع يقسم عليه بذلك القسم"(٥).

ومما ورد فيه القسم صريحاً بوقت مخصوص بفضل الصلاة فيه فى إطار المقابلة بين ما فيه من مظاهر القدرة ومايقابلها من مظاهرها ، وقت "الضحى" ، قال الله تعالى:(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٢. عزرتموهم : نصرتموهم.
(٢) معانى القرآن : الأخفش الأوسط : ١ : ٢٥٦.
(٣) سورة الفجر : الآيات : ١ : ٥.
(٤) الكشاف : الزمخشرى :٤ : ٢٤٩.
(٥) فى ظلال القرآن : سيد قطب : ٣٠ : ١٨. الطبعة الثالثة . دار الشروق ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)[١].

وفى الجمع بين الضدين فى القسم هنا حث على تدبر عظيم شأنهما ، وفى استهلال السورة بالقسم بالضحى إشارة إلى فضل هذا الوقت وشرفه "وقيل : إنما خُص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام ، وألقى السحرة سجدا ، لقوله تعالى - ويحشر الناس ضحى - وقيل : أريد بالضحى النهار ، بيانه - أن يأتيهم بأسنا ضحى - فى مقابلة بياتا"[٢].

وقال صاحب الإتقان : "ومن لطائف القسم فى القرآن قوله تعالى: (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل ، المقسم عليه ، وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودّع محمداً ربُّه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه"[٣].

وأقسم الله عز وجل بصلاة العصر "لفضلها لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور لقوله - عليه الصلاة والسلام - "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر..." وفى الحديث : "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله"[٤].وذلك فى قوله تعالى : (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[٥].

والمقسم عليه هنا بصلاة العصر ، قضية لها خطورتها وشأنها ، تعلق فيها خسر الإنسان مؤكدا بـ "إن" ، ووقوع اللام فى خبرها بهذا القسم ، بالصلاة الوسطى التى ورد ذكرها فى إطار الأمر بالمحافظة على الصلاة بياناً لشأنها فى قول الله عز وجل : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ

---

(١) سورة الضحى : الآيات ١ : ٣.

(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ٢٦٣.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن : جلال الدين السيوطى : ٢ : ١٣٥. المطبعة الأزهرية المصرية. ١٣١٨هـ.

(٤) روح المعانى : الألوسى : ٣٠ : ٤٥٧.

(٥) سورة العصر كاملة . وتواصوا بالصبر : أى : عن المعاصى وعلى الطاعات وعلى ما يبلو الله به عباده. الزمخشرى : ٤ : ٢٨٢.

والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)[1].

وجاء التعبير عن الإنسان معرفاً بأل التى تفيد استغراق الجنس ، ثم استثنى سبحانه:(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) ليشمل ذلك سياق السورة بأكملها.

وقيل : "خصت [أى صلاة العصر] بالفضل لأن التكليف فى أدائها أشق لتهافت الناس فى تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم. وقيل : أقسم عز وجل بوقت تلك الصلاة لفضيلة صلاته أو لخلق آدم أبى البشر فيه من يوم الجمعة، وقيل : العصر العشى ، أقسم سبحانه به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة"[2].

كما أقسم سبحانه بصفة الصف للصلاة حال التلبس بها ، فقد ورد فى بيان معنى قوله تعالى: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)[3] أن "المقسم به طوائف الملائكة أو نفوسهم ، والمراد صفهم فى الصلاة"[4] أو "الصافات أقدامها فى الصلاة"[5].

بيان شأن "الصلاة" فى إطار أسلوب "الشرط":

اتخذ بيان فضل الصلاة مجاله الواضح إلى الظهور من خلال الاستعمال القرآنى الكريم لأسلوب الشرط ، فكثيرا ما يرد الشرط متضمناً ذكر الصلاة ومشيراً إلى فضلها وفضل ما تقترن به وتترتب عليه أو يترتب عليها من شروط أو نتائج.

تعلق أسلوب الشرط بغيره من الأساليب البلاغية هنا وتنوع مجالات ذلك:

ورد أسلوب الشرط فى إطار الكثير من الأساليب البلاغية التى اقتضت دراستها تفرقها فى هذا البحث فى إطار تلك الأساليب وقد اتضح الكثير منه فى إطار أسلوب "القصر" كما فى قوله تعالى:(إِنَّمَا يُؤْمِنُ

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٣٨.

(٢) روح المعانى : الألوسى : ٣٠ : ٤٥٧.

(٣) سورة الصافات : الآية ١.

(٤) حاشية السيد الشريف على الكشاف : ٣ : ٣٣٣.

(٥) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٣٣٣ . وقيل : الصافات أجنحتها فى الهواء منتظرات أمر الله تعالى : روح المعانى : الألوسى : ٢٣ : ٦٤.

بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)[1] ، وقوله تعالى :(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ...) [2] الآية .

وكما اتضح فى أسلوب "القسم" كما فى قوله تعالى : (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ...) [3] الآية.

وكما هو الحال فى ورود أسلوب الشرط مبينا شأن الصلاة واتصالها بأحوال مخصوصة اقتضت أحكاما شرعية خاصة بها فى صلاة الخوف ، فى قوله تعالى – فى سياق الأمر بالمحافظة على الصلاة :(فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[4] ، وقوله تعالى فى سياق آخر :(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...)[5] ، وهو سياق مفصَّل اتضح دور وسائل الشرط فى بيان أقسامه وأحكامه ارتباطا بما يتصل به كل قسم من حال مخصوصة تقتضى جانبا من تلك الأحكام ، وهو ما اتضح أيضا فى بيان أحكام الوضوء والتيمم والطهارة مما سيرد بيانه مفصلا – إن شاء الله تعالى – فى مواضعه من هذا البحث.

وكذلك ورد الشرط مبينا مدى تعظيم شأن الصلاة فى نفوس أصحابها فى إطار تنوع ما هم عليه من صفات الإيمان عقيدة وعملاً ، مثل قوله تعالى :(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)[6] كما سيرد بيانه أيضا فى موضعه من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٥.
(٢) سورة الأنفال : الآيتان ٢ : ٤.
(٣) سورة المائدة : من الآية ١٢.
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٣٩.
(٥) سورة النساء : من الآية ١٠١.
(٦) سورة الفرقان : من الآية ٧٣.

واتخذ أسلوب الشرط فى إطار أسلوب الكناية – خاصة – مجالا واضحا لبيان شأن الصلاة ، وبخاصة الكناية عن تمكن صفة الخشوع فى نفوس المؤمنين ممن : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...)[١] ، "وإذا يُتلى عليهم" القرآن الكريم "يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا "[٢] والكناية عن صفات المعرضين الذين يتخذون النداء إلى الصلاة هزوا ، (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى)[٣] ، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ)[٤]، وكل ذلك – أيضا – سيرد فى مواضعه من البحث إن شاء الله تعالى.

كما ورد أسلوب الشرط مقترناً بأسلوب الاستفهام الإنكارى خاصة بيانا لشأن الصلاة وتوبيخاً للمعرضين والمستكبرين عنها وتعجيباً منهم كما سيرد فى موضعه.

وبيانا لشأن صلاة الجمعة ، وفى إطار أسلوب النداء ، ورد الشرط فى سورة "الجمعة" مشيراً إلى ذلك الشأن ، وورد الشرط والجواب مشيرين إلى تلازم الأذان والسعى إليها وترك البيع وما إليه ، ثم عاد الشرط للظهور بعد انقضائها لإباحة ما كان محظورا من قبل.

كما ورد الشرط مبيناً قدرة الله تعالى ومظاهر حفظه لأماكن الصلاة عامة من: (صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا).[٥]

وبالإضافة إلى ما ورد من جوانب دراسة أسلوب الشرط فيما سبق ، وما سيرد مقترنا بغيره من الظواهر البلاغية التى اقتضت دراسته فى ضوئها استقلال كل منها بمبحث سيرد تفصيل القول فيه من هذه المباحث التى أجملت ذكرها هنا ، بالإضافة إلى ذلك ، اتضح لهذا الأسلوب من خصائص التعبير ما يقتضى إيضاحه – هنا – فى هذا الجانب المستقل.

---

(١) سورة السجدة : من الآية ١٦.
(٢) سورة الإسراء : من الآية ١٠٧.
(٣) سورة النساء : من الآية ١٤٢.
(٤) سورة المرسلات : الآية ٤٨.
(٥) سورة الحج : من الآية ٤٠.

أينما والاستخدام القرآنى الخاص لها هنا :

فى قول الله تعالى : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)(١).

ورد الاستخدام القرآنى الخاص لأسلوب الشرط – هنا – مميِّزا شأن الصلاة.

فمن النحاة من اشترط "أن جواب الشرط لا يجوز تقديمه على الأداة ، ولا يجوز تقديم جزء منه على الأداة أيضا ، أو لا تقع الأداة وفعل الشرط بين أجزاء الجواب... أى : وأينما كنت جعلنى مباركا وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، والجواب جملتان فتقدم بعض الجواب للاهتمام به"(٢).

وإذا كان تقدم قوله تعالى "وجعلنى مباركا" – على هذا الرأى – للاهتمام به ، فلعل هناك جانبا جديرا بالنظر – كذلك – وهو ما يشير إلى شأن الصلاة ، حيث أتاح ذلك التقدم للشرط "أينما" مجاورة قوله تعالى: "وأوصانى بالصلاة" ، وفى ذلك اقتران ذكر الصلاة بذكر شمول الأماكن التى تدل عليها "أينما كنت" ، ثم اقترن ذكر المكان فى هذا الشمول ، بذكر الزمان على دوامه فى قوله تعالى: (مادمت حيا) لترد الصلاة ثم الزكاة المعطوفة عليها فى موضع متوسط بينهما.

ويرَبط جانبا الشرط بين شأن الصلاة وما تتصل به من نعم الله تعالى على إطلاقها، ومن ذلك ما يتضح فى قوله تعالى : (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)(٣).

فنعمة التمكين فى الأرض التى نصَّت عليها جملة الشرط وردت متعلقة بما ذكر من قبل فى إخراجهم (مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا

---

(١) سورة مريم : الآتيان : ٣٠ ، ٣١.

(٢) من أساليب القرآن بين المعنى والصناعة النحوية : حامد أحمد نبيل : ١٣٠ ، ١٤٨. الطبعة الأولى. ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٣) سورة الحج : الآية ٤١.

رَبُّنَا اللَّهُ)[١]. وما تبعها من (دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) وبحفظ الله ونصره فهو (الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)[٢].

وهذا التمكين فى جانب الشرط اتصل بما يترتب عليه من أعمال تتصدرها إقامة الصلاة ، وكأنها الغاية من التمكين ففيه "إشعار بأن تمكينهم بعد الإخراج إنما هو ليتمكنوا من القيام بما أخرجوا لأجله"...[وقيل] : العموم فى هذا كله أبين ، وبه يتجه الأمر فى جميع الناس ، وإنما الآية آخذة عهدا على كل ممكن على قدر ما مُكّن"[٣].

مغزى تعدد الوصف والأفعال الماضية هنا:

وتعدد الوصف بالعطف فى جانب الجواب المستهل بجملة "أقاموا الصلاة" ، تعدد له مغزاه فى بيان شأن ما يترتب على تمكين هؤلاء فى الأرض ، من تمكن هذه الصفات فيهم وانتشارها فيما هم ممكنون فيه من الأماكن ، وانتشار آثارها المقترنة بها كذلك.

وفى ورود الشرط :"مكناهم" والجواب "أقاموا الصلاة" وما عطف عليه من أفعال فى صيغة الفعل الماضى ، دلالات واضحة على تأكد وتحقق تلك الصفات وثبوتها وإظهار شأنها وشأن ما تتصل به من آثار.

لولا ودلالتها فى سياقها :

ويقترن ذكر التسبيح فى أسلوب الشرط بالنجاة من الكرب والغم تعظيما لشأنه ، [وقد قيل] "عن ابن عباس : كل ما فى القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة"[٤]. يتضح ذلك فى قول الله عز وجل فى شأن يونس – عليه السلام : (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي

---

(١) سورة الحج : من الآية ٤٠.
(٢) سورة الحج : من الاية ٤٠.
(٣) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى عثمان : ٣ : ٩٣.
(٤) روح المعانى : الألوسى : ٢٣ : ١٣٨.

بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[1].

وورود ذكر التسبيح هنا بالاسم دون الفعل له دلالته على ثبوت صفته فيه ، وقد فسر ذلك بأنه كان من "المصلين قبل أن يدخل بطن الحوت"[2] وقيل : "المراد بالتسبيح ها هنا حقيقته".[3]

وبيان شأن الصلاة أو التسبيح هنا واضح بترتب الخروج من بطن الحوت عليه ، وأنه إن لم يحصل "للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون" ففيه كناية دالة على عظم أجر المصلين أو المسبحين عامة ، ففضلاً عما ذكر فى مجالات أخرى من وجوه ذلك الأجر ، وما يتعلق به من دلالات التكريم ، فهو ملازم هنا للخروج من هلاك كاد أن يكون محققاً إلى فرج مطلق.

وفيه كذلك من عناصر التأكيد وتحقق الحدوث ما أظهر ذلك الشأن وأثره ، كما هو الحال فى التأكيد بـ "أنّ" ودلالة الماضى "كان" ، واقتران "اللام" بـ "الماضى" "للبث" ، وتحديد المكان "فى بطنه" وإلى التى تفيد امتداد الغاية إلى ما بعدها فى تحديد زمنى كذلك "يوم يبعثون".

وفيه أيضا جمع لفظة "المسبحين" ودلالتها على عموم ما يستفاد من الأسلوب لمن ماثله أو اقتدى به ، وإسناد المضارع يُبْعَث إلى ضمير الجماعة فى "يبعثون" إشعار بهول البعث ، وهول الجزاء المترتب على المخالفة المتعلقة بقوله تعالى : "للبث فى بطنه" إن لم يكن كذلك.

وهكذا اتضح ورود هذا الأسلوب الجامع بين الشرط وجزائه فى إطار متلاحم متنوع الدلالات وفق ما تشير إليه أداته ، وما يرد فى إطاره من صيغ لغوية وأدوات دالة ، مبيناً الكثير من وجوه شأن الصلاة وما يتصل بها من وجوه العبادة ويترتب عليها من آثار.

أسلوب (الالتفات) وبيان شأن الصلاة:

يرد أسلوب الالتفات فى آيات القرآن الكريم فى مجالات ذكر الصلاة محققا فى ضوء غيره من الأساليب غايات هذه العبادة وما ينبغى

---

(١) سورة الصافات : الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٢٣ : ١٣٨.
(٣) نفسه.

لها من أسس التوحيد الخالص ، وصفات التقوى وما يتعلق بها من مظاهر وأعمال.

ولهذا الأسلوب شأنه المميز بين أساليب البلاغة ، وقيل فى سبب ذلك أنه يرد "لدفع السآمة من الاستمرار على ضمير المتكلم أو ضمير الغائب ، [فيُنتقل] من الخطاب إلى الغيبة أو غير ذلك لأن الكلام على ضمير واحد لا يستطاب"(١).

ويستدلون على ذلك بأن تنويع أنماط الأسلوب فى استخدامه للضمائر يدفع السآمة، ولذلك عدوا توالى ضمائر الخطاب – مثلاً – فى الكلام – لا يستطاب(٢) ، وجعلوا الانتقال من بعضها إلى بعض مما يستحسن لما يتولد عنه من نشاط السامع وإيقاظ إصغائه [مما هو أفضل] من إجرائه على أسلوب واحد(٣).

وفى ذلك كله عناية بشأن السامع أو المتلقى ؛ فجعلوا الالتفات لأجله ، دفعا للسآمة، أو تنشيطا وإيقاظا لإصغائه.

ولم يجد إبراز المعانى التى ورد أسلوب الالتفات فى إطارها ، والمقام الذى وردت فيه عناية بالربط بينها.

وبتأمل أسلوب الالتفات فى هذا المقام – مقام بيان شأن الصلاة – يمكن استنباط الكثير من وجوه التميز الذى يختص به هذا الأسلوب فى ضوء سياقه ومقام الكلام الذى سيق مناسبا له.

ومما ورد فيه هذا الأسلوب هنا قوله تعالى :(... قُلْ إِنَّ هُدَى اللّـهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)(٤).

فورد هنا ذكر الهدى والإسلام وإقامة الصلاة والتقوى ، وهى

---

(١) أسرار الالتفات فى ضوء الذكر الحكيم : إبراهيم على حسن داود : ٧٩. مطبعة الأمانة . ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) انظر فى ذلك – على سبيل المثال : - منهاج البلغاء وسراج الأدباء : محمد الحبيب بن الخوجة : ٣٤٨. طبعة بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨١م.

(٣) انظر : الكشاف : الزمخشرى : ١ : ٦٤.

(٤) سورة الأنعام : الآيتان ٧١ ، ٧٢.

معان جامعة ، فى إطار من الإطلاق الملائم كونها جامعة لأسس الدين كله والعبادة. والضمائر فيها متصلة بصيغ الجمع مع الالتفات من التكلم إلى الخطاب فى "وأمرنا لنسلم" "وأن أقيموا الصلاة واتقوه" فى جانب العبادة ، أما ضمير الغيبة المفرد فوارد فى جانب التوحيد الخالص فى أسلوب القصر الجامع لتعريف الطرفين والتقديم فى قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقوله تعالى : (وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ) معطوف على قوله : (إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) ، "على أنهما مقولان ، كأنه قيل : قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم"[(١)].

وفى الانتقال من قوله تعالى هنا : (وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) بضمير التكلم إلى قوله تعالى:(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ) "التفات... للإيذان بأن الكافر ما دام كافرا، كان كالغائب الأجنبى ، فخوطب بما يخاطب به الغيب ، وإذا أسلم ودخل فى زمرة المؤمنين صار كالقريب الحاضر فخوطب بما يخاطب به الحاضرون"[(٢)].

والمقام هنا اقتضى العناية بشأن هذه الأسس الجامعة للدين منطلقة أولا من "الهدى" الذى ورد التعبير عنه مطلقا هكذا "قل إن هدى الله هو الهدى" فى حدود التعبير بالقصر المبنى على تعريف الطرفين "هدى الله" : بالإضافة ، ثم "هو الهدى" : بأل فضلاً عن توسط ضمير الفصل ، ثم اتخذت هذه العناية انتقالا إلى الأمر بالإسلام "وأمرنا لنسلم لرب العالمين" أمرا عاما ، فمن دخل فى نطاقه وأمر بما يقتضيه اختُص بهذا الانتقال إلى ضمير الخطاب " وأن أقيموا الصلاة واتقوه" فلعله تنبيه على كونه جديراً بهذا الخطاب الخاص بعد ذلك الأمر العام لدخوله فى نطاقه.

والملاحظ فى هذا المجال أن أسلوب الالتفات فى مقام ذكر

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٢٩.

(٢) روح المعانى : الألوسى : ٧ : ١٩٠. ولعل الألوسى بهذا الرأى يقصد أن الأمر بالإسلام عام للجميع فورد فيه ضمير الجمع للمتكلمين لإشارته إلى عموم الأمر ، فإذا دخل من دخل منهم فى الإسلام صار حقيقا بأن يخاطب على وجه الخصوص بإقامة الصلاة والتقوى فانتقل إلى ضمير الخطاب.

الصلاة يقترن بقضية توحيد الله تعالى فى إطار القصر بالتقديم أو غيره.

ومن الملاحظ كذلك أنه يرد فى إطار ما مضى ذكره من القضايا العامة كالهدى والإسلام والتقوى، وفى إطار ذكر النبى – صلى الله عليه وسلم- وما يجب عليه من اتجاه مخلص إلى الله بالعبادة المقترنة بذكر إنعام الله عليه، ومظاهر هذا الإنعام سواء فى الدنيا أو الآخرة أو كلتيهما.

من ذلك قول الله تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ *وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)(١).

فالضمائر كلها من أول السورة تسير على نسق واحد "نشرح – وضعنا – رفعنا"، بضمير التكلم لله جل شأنه، وكذلك ضمائر الخطاب للمفرد "لك – صدرك – عنك – وزرك – ظهرك – لك – ذكرك" وتاء الفاعل المخاطب فى فرغت، والمستتر الذى تقديره أنت فى "فانصب" وكذلك "فارغب".

ولكن الانتقال من ضمير التكلم إلى ذكر الله تعالى فى إطار القصر – حين ورد فى مقام العبادة والتوحيد الخالص والرغبة إليه وحده – تنوع فيه النسق، فقال تعالى: (وإلى ربك) مما يتضمن معنى الانتقال إلى الغيبة "إليه" وحده، فلم يقل سبحانه: إلينا، على النسق الأول، ولعل لذلك فضله فى الإشارة إلى معنى الولاية والحفظ مما يتعلق بلفظ الربوبية، فضلا عن التشريف المستفاد من الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم.

وفيه إلى جانب ذلك وضع الظاهر "رب" موضع الضمير بياناً لذلك الشأن مما يتضمنه لفظ رب، من معانى الإنعام، والإضافة، من

---

(١) سورة الشرح. فإذا فرغت فانصب : قيل : أى : فرغت من عبادة كالصلاة "فانصب" فى أخرى كالدعاء، أو إذا فرغت من عبادة كتبليغ الوحى فاتعب فى عبادة أخرى شكراً لما عددناه عليك من النعم السالفة ووعدناك من الآلاء الآنفة. انظر : ضياء التأويل: ٤: ٢٨٥، وروح المعانى ٣٠ : ٣٩١.

معانى التكريم الموجب للتوحيد والعبادة ، والمشير – فى الوقت نفسه – إلى سمو المنزلة فى هذا المقام.

ومن هذا القبيل قوله عز وجل:(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)(١).

ووضح الزركشى هذا الالتفات بقوله : "حيث لم يقل (لنا) تحريضا على فعل الصلاة لحق الربوبية"(٢).

وهنا ارتبط ذكر الجزاء فى الآخرة محدداً فى "الكوثر" بالأمر بالصلاة ، وفيه إشعار بشأن الصلاة ووجوب اقترانها بالشكر ، فقد "وُجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى شكر النعمة بحقها الأول ، حق الإخلاص والتجرد لله تعالى فى العبادة وفى الاتجاه إلى الصلاة ، وفى ذبح النسك خالصاً لله تعالى غير ملق بالا إلى شرك المشركين"(٣).

وفيه أيضا وضع الظاهر موضع المضمر فى إطار إبراز شأن الصلاة فى: "فصل لربك" عز وجل المنعم بذلك الفضل وبما يتضمنة لفظ رب فى إضافته أيضا من وجوه الإنعام.

ويرد أسلوب الالتفات – فضلاً عن ذلك – فى إطار أسلوب القسم ، والاستفهام الإنكارى ، انتقالاً من الخطاب بضمير الجمع ، إلى الغيبة دلالة على الإعراض والترك والذم فى قوله تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ)(٤).

دور التشبيه فى بيان شأن "الصلاة والمصلين".

ورد التعبير القرآنى فى مجالات ذكر الصلاة مظهراً شأنها فى

---

(١) سورة الكوثر . الكوثر : الخير الكثير . أو هو نهر الكوثر خاصة . شانئك : مبغضك. الأبتر : المنقطع عن كل خير.

(٢) البرهان فى علوم القرآن : الزركشى : ٢ : ٣١٤.

(٣) فى ظلال القرآن : سيد قطب : ٣٠ : ٣٩٨٨.

(٤) سورة الانشقاق : الآيات ١٦ : ٢١لتركبن طبقاً عن طبق : أى : لتعانون حالاً بعد حال وفق ما هو مرسوم لكم من أدوار العيش وغمرات الموت وأمور البرزخ وشئون البعث ودواهى الحشر.

كل حال بالكثير من وسائله البلاغية التى اتضحت فيما سبق من جوانب ، والتى سوف تتضح فى الكثير من الجوانب الأخرى التى تمثل وجوها من الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم.

وحين وردت الصلاة فى إطار التمثيل القرآنى الكريم أفسح لها المجال الواحد ، لتتخذ منه بيانا جامعا لجوانبها الحسية الظاهرة فى الهيئة المرئية للمصلين سجودا وركوعا ، والقوة المعنوية المتعلقة بالإيمان والعقيدة ، والأثر النفسى الذى تتركه فى نفوس المؤمنين من اطمئنان وإعجاب ، والكافرين من تبرم وغيظ.

قال الله تعالى :(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[1].

فاستهل – سبحانه وتعالى – بذكر محمد – صلى الله عليه وسلم – وعطف عليه الذين معه، ووضح – بأسلوب المقابلة – شدتهم فى مجاهدة المعاندين وتراحمهم فيما بينهم. فمهد بهذا الثناء لما بعده. ثم اتجه إلى بيان حال الصلاة موضحا بالفعل "تراهم" صورة حسية لحالهم "ركعا سجدا" فى اجتماعهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم- ، مشيرا بذلك إلى "الدوام والثبات"[2] على ذلك مما يستفاد من ورودهما اسمين "والمراد تراهم مصلين ، والتعبير بالركوع والسجود مجاز مرسل"[3].

ثم بين حال رجائهم الملابس لحال صلاتهم فى قوله تعالى: (يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا) وجعل لهم سمة تميزهم "تحدث فى جبهة السُّجاد من كثرة السجود.... أو (هى) صفرة الوجه من خشية الله

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٢٦ : ٢٨٣. والشطء ما يخرج من النبات ويسمى فرخا.
(٣) السابق : ٢٢٧.

تعالى...(أو كما قيل) استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل"[١] ، أو هى "النور يوم القيامة"[٢].

وبعد أن أشار بـ "ذلك" إلى بعد شأن ما تقدم وسموه وأخبر عنه بقوله "مثلهم" لما تشير إليه كلمة "مثل" من معنى الوصف العجيب الذى يجرى مجرى الأمثال بيانا لشأن تلك الصفات فيهم كذلك ، وبَيَّن كونه فى التوراة ، ثم انتقل إلى الإنجيل بتكرار قوله تعالى "مثلهم" "تأكيداً لغرابته وزيادة تقريرها"[٣] ورد التشبيه الجامع لتتضح تلك الصفات المذكورة قبله مضافا إليها غيرها فى صورة حسية معنوية واضحة الدلالة.

وهذا الانتقال له بلاغتة فى الكثير من الجوانب:

منها : أن الجوانب السابقة وردت فى تعبير تام يُشعر المتلقى أنه اكتمل فى ذاته لتضمنه جوانب الوصف المعنوية من الشدة والرحمة ، والحسية من الركوع والسجود والسمات الظاهرة فى الوجوه ، والإخبار عن ورود ذلك الثناء فيما سبق من الكتب السماوية ، وهو وصف جامع تام.

ومنها : ورود الانتقال إلى المشبه به لدى قوله تعالى : "كزرع أخرج شطأه" فى صورة الاستئناف البيانى المناسب لقوله تعالى "مثل" لما ينشأ عن هذا اللفظ فى الأذهان من رغبة فى معرفة ما ينطوى عليه المثل من الغرابة والشأن.

ومنها : إخراج تلك الصفات التى جمعتها دلالة كلمة "مثل" وما ذكر تفصيلاً قبلها فى صورة مألوفة من الزرع الذى يخرج شطأه ، لما فيه من قوى النمو التى أخرجت منه غيره مما لا يضعفه بل يزيده قوة "فآزره" ، مما يناسب المشبه به من حال المصلين الذين يشار بذلك إلى وصفهم السابق. "أشداء".

ومنها : بيان كون هذه القوة المصورة فى المشبه به فى نماء

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٥٥٠.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٢٦ : ٢٢٧.
(٣) السابق : ٢٢٧.

وتصاعد ؛ دلت على ذلك الأفعال الماضية فى تتابعها وترتب بعضها على بعض بالفاء "فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه" ، فى هذه السرعة من حال إلى ما فوقه ، بياناً لشأن الإسلام والمسلمين وما مروا به من مراحل.

ومنها : جمعه بين الأثر النفس الناشئ عن صورة المشبه به والمشار به إلى المشبه فى قوله تعالى: (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) فى إطار المقابلة ، وما تعلق بها من الكناية ، حيث خص الزراع "لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم"[(١)].

وفى ذلك بيان مفصل لما ورد قبله مجملاً دالاً على شأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ورسالته وغايته فى قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)[(٢)].

دور الاستعارة فى بيان شأن الصلاة بإبراز ذلك حسياً فى جانب الأجر :

كذلك ورد شأن الصلاة وما يتعلق بها من أعمال العبادة فى إطار جامع تلتقى أطرافه فى بيان استعارى موضح ما يترتب عليها من العاقبة.

قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)[(٣)].

لقد أخرج التعبير الاستعارى هنا فى قوله تعالى : (يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) معنى رجاء الثواب بعمل تلك الطاعات التى تتصدرها الصلاة إخراجها حسيا لجانب معنوى كامن فى نفوس الموصوفين هنا.

وتعداد أعمالهم المذكورة بعد إن فى إطار العطف ، ثم جمعها

---

(١) السابق : ٢٧٨.

(٢) سورة الفتح : الآية ١٢٨.

(٣) سورة فاطر : الآيتان ٢٩ ، ٣٠.

بالفعل يرجون ، مما يشير إلى مرافقة حال الرجاء تلك ، لجميع الأعمال المذكورة قبلها ، مما يشير بدوره إلى كونها متجهة إلى الله تعالى فى صدق وسداد.

وتخير لفظ "التجارة" دون غيرها لبيان ذلك له بلاغته من عدة وجوه:

منها : أن التجارة متعلقة بالربح الذى هو أكبر شاغل للنفوس ، ولذا اتضح شأن صلاة الجمعة فى إطار الأمر بالاتجاه إليها "إذا نودى" لها وتَرْك "البيع" كما سيرد بيانه.

ومنها : تعلق التجارة بالحذر الدائم فى نفوس أصحابها وخشية كسادها ، فإذا شُغل الموصوفون هنا بالعبادة صلاة وإنفاقا راجين ثواب الله مستشعرين كونه أعظم منها ، فكأنهم فى تجارة أخرى ، رابحة لا تعرف الكساد.

ومنها : أن تسميه الصلاة وما يرتبط بها من وجوه العبادة بالتجارة يدل على ما يكمن فى نفوس أصحابها من رغبة حقيقية فيها ، وشدة تعلق بها ، وحرص عليها وخوف من عدم قبولها ، وصونها والمداومة على الانشغال بها حتى جاز أن تسمى تجارة ، فهذه هى صفات التجارة المعروفة ، التى اتخذت علما على تجارة خرجت بتشبيهها بها وحلولها محلها فى استعارة دالة ، من الإبهام إلى الجلاء الواضح ، مما أشير إليه فى مجالات أخرى بالاشتراء للأنفس والأموال مسندا إلى الله تعالى ، مقابل الجنة.

ومنها : أن التفصيل فى هذه الأعمال المتتابعة التى اشتملت على تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإنفاق سراً وعلانية ، ثم الجمع فى إطار التجارة التى لن تبور فيه ترغيب وحث بعيد المدى ، وإشارة إلى الثواب فى الآخرة ، وتعلق بالمغفرة المترتبة عليه فى الدنيا ، لما ذيِّل به من قوله تعالى:"إنه غفور" ، وثناء دائم كما أشعر به قوله تعالى :"شكور".

هذا فضلا عما يَدُل عليه الفعل "يتلون" من الاستمرار أى "يداومون على تلاوته وهى شأنهم وديدنهم... يأخذون ما فيه ... يعلمون

ويعملون به"[١]، وما يدل عليه قوله تعالى: "سرا وعلانية" بهذا الطباق من دوام الإنفاق "كيفما اتفق من غير قصد إليهما"[٢] ، وما تدل عليه لفظة تجارة – فضلا عما سبق- على أنها "معاملة مع الله"[٣] وما يدل عليه قوله تعالى: "لن تبور" ويؤكده لكونه ترشيحا للاستعارة ، هذا إلى جانب تلك الدلالة التى يتضمنها الفعل "يرجون" من كونهم "لا يقطعون بنفاق تجارتهم بل يأتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم"[٤].

وهكذا اتجهت الاستعارة فى الأسلوب القرآنى العظيم لبيان شأن أجر الصلاة وما تعلق به من أحوال الرجاء والخوف لدى المصلين فى هذا الإطار الحسى الجامع، كما اتجهت فى جانب منها لبيان شأن الإقامة التى ترد مقترنة بذكر الصلاة مما اتضح فى مجال بيان معنى "الإقامة" على وجه من وجوه التأويل، مما سلف بيانه فى القسم الأول من أقسام هذه الدراسة.

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٣٠٨.
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٢٢ : ٣٦٥.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.

القسم الثالث

فى هذا القسم ستتجه الدراسة إلى محاولة تبين شأن الصلاة فى إطار الأساليب البلاغية التى تُبيِّن هول التهاون فيها وتركها وتصوير عاقبة ذلك وهو مجال واسع يستوعب بدوره الكثير من الأساليب البلاغية التى تتطلب التحليل والدراسة، لذا فقد اشتمل على دراسة الجوانب التالية :

- التقاء الترغيب والترهيب فى إطار "إيجاز الحذف".
- بيان شأن الصلاة – هنا – فى إطار "الكناية الدالة".
- قوله تعالى : "فلا صدق ولا صلى" وما يتضمنه من عناصر ودلالات ، وما يتضمنه أيضا من الكناية عن الكفر.
- بيان شأن "الركوع" بكونه "كناية" عن الخشوع والتواضع لله جل شأنه.
- تعظيم شأن السجود "بالكناية" عن هول تركه مقترناً بأهوال القيامة.
- السياق القرآنى العام وبيان دلالة هذه الكنايات فى أسلوب يقابلها.
- بيان شأن الصلاة فى إطار أسلوب الاستفهام الإنكارى وتعلقه بالتوبيخ والتعجيب وما إليها فى هذا المجال.
- تكرار أساليب الاستفهام الإنكارى الدال.
- تكرار أداة الزجر والردع "كلا"
- التأكيد بالقسم وما يلازمه من تأكيد باللام والنون والدلالات اللغوية "هنا".
- الوصف وتقابل المعانى.
- اقتران الاستفهام الإنكارى بغرضى النفى والتقرير ودلالته هنا.

- ورود الاستفهام فى إطار أسلوب الالتفات فى هذا المجال ودلالته.

- وروده فى إطار تفصيل أحوال المخاطبين به فى طباق موضّح دلالته.

- ربط الاستفهام الإنكارى بين "التكذيب ومظاهره و "السهو عن الصلاة وعقوبته".

بيان شأن الصلاة ببيان هول التهاون فيها وتركها وتصوير عاقبة ذلك:

تنوعت أساليب القرآن الكريم البلاغية فى بيان شأن الصلاة ببيان شأن التهاون فيها وتركها ، بطرق دالة على تعظيم هذا الشأن ، وما يتصل به من هول عاقبة التقصير فيه.

ومن بين هذه الأساليب :

التقاء الترغيب والترهيب فى إطار "إيجاز الحذف" :

اقترن أسلوب الأمر فى إطار الحث المتعلق بالثناء ، بأسلوب الوصف التقريرى المتعلق بالترهيب فى قول الله تعالى :(قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)[1].

فقد أتبع الأمر بإقامة الصلاة والإنفاق "سراً وعلانية" بجانبى : الترهيب من فوات زمنه "فلا يقدروا – إذا فاتهم ذلك – على مداركة ما قصروا فى جنب الله"[2]، والترغيب الناشئ عن وصفهم بالإيمان فى قوله تعالى : (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)، والإضافة فى قوله تعالى (لعبادى) ، " ولم يرد لفظ [العباد] فى القرآن إلا مدحة للمؤمنين ، ونسبتهم إلى الله تعالى فيها تشريف فوق تشريف وتنبيه على أنهم الذين توفروا على وظائف العبودية (لله تعالى) وأوفوا حقوقها وسارعوا إلى

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣١.

(٢) فى رحاب البيان القرآنى : "سورة إبراهيم" محمد السعدى فرهود : ٦٧. القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الامتثال لأمر الله"[1].

ودلالة "إيجاز الحذف" هنا على هذا المعنى دلالة تأكيد وبيان ملازمة لدلالة الثناء ففى قوله تعالى:(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ...) "ربما كان مقول القول [فيه] محذوفاً ، ووقع "يقيموا الصلاة وينفقوا" جواباً للقول المحذوف ودليلاً عليه ، وأصل الكلام : قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا، ويكون هذا الجواب خبراً من الله تعالى ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "إن قال لهم هذا القول امتثلوا بمقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا"[2] ، وقيل فى ذلك بل : "هو مضارع بلفظ الخبر ، ومعناه الأمر ، والمعنى أقيموا الصلاة"[3]، وقيل : - أيضا - إن "يقيموا" مجزوم بإعمال لام أمر مضمرة فيه[4].

ولعل التأويل الأول فى ذلك أكثر مناسبة لدلالة التشريف ومقام الثناء الذى ورد فى سياقه دلالة على سرعة الاستجابة بموجب صفة الإيمان والإضافة فى قوله تعالى"لعبادى" ،والله أعلم.

بيان شأن الصلاة – هنا – فى إطار "الكناية" الدالة:

تعلق بيان شأن الصلاة بأسلوب الكناية الدالة ، فإذا كان تعظيم شأن الصلاة متعلقاً بالمحافظة عليها والقيام على نحو خاص إليها ، فإن ذلك يرد متعلقاً بكناية دالة على إنكارها والاستخفاف بها وبالدين كله لدى طوائف ذكرهم الله تعالى بقوله:(وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا)[5] ، "فالكلام مسوق لبيان استهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق إظهاراً لكمال شقاوتهم"[6].

وترد الكناية الدالة على فساد العقيدة وتجرد القلوب من الإيمان

---

(١) نفسه
(٢) السابق : ٧٠.
(٣) البحر المحيط : أبو حيان : ٥ : ٤٢٦.
(٤) انظر : من أساليب القرآن بين المعنى والصناعة النحوية : حامد أحمد نيل : ٣٤.
(٥) سورة المائدة : الآية ٥٨.
(٦) روح المعانى : الألوسى : ٦ : ٣٣٨.

واليقين في قوله تعالى: (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً)(١) فقوله تعالى – في جواب شرط "إذا" – قاموا كسالى ، كناية عن استثقالهم الصلاة "كالمكره على الفعل لأنهم لا يعتقدون ثوابا في فعلها ولا عقابا على تركها"(٢)، وقد تولت الحال الثانية "يراءون الناس" بيانَ شأن الأولى وسببها.

هذا فضلاً عما تتضمنه هذه الكناية من إشارة إلى شأن القيام إلى الصلاة وما يجب لها من استعداد ونشاط نفسي وبدني وصدق يقين وخشية لله.

قوله تعالى: (فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى) وما يتضمنه من (الكناية) عن الكفر:

واجتمع نفي التصديق ونفي الصلاة في إطار العطف في قوله تعالى: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى)(٣).

فالكناية عن عدم التصديق وعدم الصلاة ، لها دلالتها الواضحة على عقيدة صاحبها وما صار إليه أمره حال الموت وما بعده.

وهنا تعددت عناصر بيان المعنى من خلال "سياق السورة" ؛ فنفي التصديق دل عليه وبينه قوله تعالى : (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) : "أي لا يؤمن بالبعث" "فلا صدق" بالرسول (ولا) بالقرآن"(٤).

ونفي التصديق – مطلقاً – تعلق بحذف مفعول صدق أي : لم يصدق الرسول – صلى الله عليه وسلم- وحذف هذا المفعول "أبلغ في التعميم"(٥).

وعطف نفي الصلاة على نفي التصديق من عطف الخاص على العام لما في دلالة عدم التصديق على التكذيب المطلق.

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٤٢.
(٢) روح المعاني : الألوسي : ٥ : ١٦٨.
(٣) سورة القيامة : الآيات ٢٩ : ٣٢.
(٤) الزمخشري : الكشاف : ٤ : ١٩٣.
(٥) نظم الدرر : برهان الدين البقاعي ٢١ : ١١١. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد . الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

أما التضاد بين ما ورد ذكره من الألفاظ فى قوله تعالى:(وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى)، بعد قوله: (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى) فلا يخفى ما فيه من بيان بلوغ التكذيب والتولى مبلغه باقترانه بنفى التصديق ونفى الجانب العملى المبنى عليه وهو الصلاة.

وما ورد فى رحاب ذلك من قوله تعالى: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) فى هذه الكناية عن حال الموت "لأن المشى لايكون إلا مع انفصال إحدى الساقين عن الأخرى ، أو عن اشتداد الأمر جدا وبعده عن الخلاص ؛ فإن العرب لا تذكر الساق فى مثل هذا السياق إلا فى أمر شديد"(١). فله دلالته الملائمة لهذا السياق حيث ذكر التكذيب وما ترتب عليه إشارة إلى عاقبته ، وإشارة كذلك إلى فوات وقت العمل أو الرجوع إليه.

أما ورود هذا النفى فى الفعلين : "فلا صدق ولا صلى"بـ "لا" دون غيرها فلأنها "بمعنى لم" ولذا اختصت بالدخول على الماضى... أى لم يصدق ولم يصل"(٢).

بيان شأن "الركوع" بكونه "كناية" عن الخشوع والتواضع لله جل شأنه:

وذلك فى بيان الامتناع عن الركوع ، وما يدل عليه من الاستكبار عن طاعة الله سبحانه ، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)(٣).

فقوله تعالى : "اركعوا" أى اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه ، واطرحوا هذا الاستكبار ... "وقيل ما كان على العرب أشد من الركوع والسجود"(٤)

---

(١) السابق : ١٠٩.

(٢) البرهان فى علوم القرآن : الزركشى : ٤ : ٣٥٥ ووضح ذلك الأخفش فقال "أى :فلم يصدق ولم يصل ، كما تقول : ذهب فلان ، فلا جاءنى ولا جاءك. انظر : معانى القرآن : الأخفش الأوسط : ٢: ٥١٨.

(٣) سورة المرسلات : الآيات ٤٨ : ٥٠.

(٤) الزمخشرى : الكشاف : ٤ : ٢٠٥.

وقد يكون التعبير بالركوع مجازا عن الصلاة بعلاقة الجزئية "وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ، ولأنه خاص بصلاة المسلمين ، ولأن بعض العرب نفر عن الدين من أجله" (١).

تعظيم شأن السجود ((بالكناية)) عن هول عاقبة تركه مقترناً بأهوال القيامة :

قال الله تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) (٢)

إن ذكر السجود هنا اتخذ إطارين ؛ أحدهما مقترن بذكر هول القيامة الذى كُنى عنه بقوله تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ) فهو "مثل فى شدة الأمر وصعوبة الخطب وأصله فى الروع والهزيمة ... [ومعناه] : يوم يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثَمَّ ولا ساق ... [وتنكير ساق] للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة منكر خارج عن المألوف كقوله تعالى : (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ) كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل ... أى يوم تشتد الحال أو الساعة كما تقول : كشفت الحرب عن ساقها على المجاز" (٣).

وهنا ورد الأمر بالسجود "توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إياه فى الدنيا وتحسيراً لهم على تفريطهم فى ذلك "فلا يستطيعون" لزوال القدرة ، ... وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يتأتى منهم ، وعن ابن مسعود تعقم أصلابهم أى ترِدّ عظاماً ، بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض" (٤).

والإطار الثانى الذى ورد فيه السجود هو إطار زمنى مضى ، وهو ما أشير إليه بقوله تعالى : (وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ

---

(١) نظم الدرر : البقاعى ٢١ : ١٨٦.
(٢) سورة القلم : الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٤٧.
(٤) روح المعانى : الألوسى : ٢٩ : ٣٥.

سَالِمُونَ).

فذكر السجود هنا بإظهاره فى موضع الإضمار بيانا لشأنه وزيادة فى تقدير الأمر وتأكيد حدوثه ، وإقامة للحجة عليهم حيث أرسلت الرسل وبُلغت الشرائع متضمنة فى كتب الله تعالى.

هذا فضلاً عما يتضمنه قوله تعالى : (وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) من الزجر والترهيب من تركه والتحذير من فوات وقته.

والجانبان يجتمعان فى إطار تقابلى تلتقى خلاله أهوال القيامة حيث العجز عن السجود مع الرغبة فيه ، بأحوال الدنيا حيث القدرة على السجود مع الامتناع عنه ، كما يجتمعان فى إطار السبب والمسبَّب ، والعمل والجزاء ، والانقضاء والدوام.

السياق القرآنى العام وبيان دلالة هذه الكنايات فى أسلوب يقابلها :

تولى النظم القرآنى الكريم بيان تعظيم شأن الصلاة ركوعاً وسجوداً وخشوعاً وما إلى ذلك بكنايات دالة جامعة تقابل ما سبق ذكره هنا من كنايات دالة على الترك والإعراض والاستهزاء بالصلاة وأعمالها.

من ذلك قوله تعالى : (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).[1]

فهذه الكناية عن سرعة الاستجابة للحق بمقتضى العلم به وسماعه ، والصدور فى ذلك عن "الخشوع" ، و"العلم" بما فى الكتب السماوية ، يقابل الكنايات السابقة وما تضمنته من دلالات على الإعراض وقصور العلم والعقل عن إدراك الحقيقة الموجبة لذلك.

---

(١) سورة الإسراء : الآيات ١٠٧ : ١٠٩.

والثناء هنا يقابل الذم هناك ، والتكريم يقابل التقريع ، وما يقوله هؤلاء حال سجودهم من دلائل إيمانهم : "إن كان وعد ربنا لمفعولا" يقابل أقوال المنكرين له، والجاحدين به.

والامتناع عن السجود والركوع يقابله هنا: "يخرون للأذقان يبكون" ، وازدياد المعرضين نفوراً من الحق هناك يقابله هنا "ويزيدهم خشوعاً".

وما يجب من عدم المبالاة بشأن أولئك المعرضين ، يوضحه هنا استواء الأمر والنهى فى مخاطبتهم (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا) معللاً بما ذكر بعده من خشوع هؤلاء وسرعة استجابتهم وصدقهم.

ودلالات الإعراض والكنايات عنها قابلها هنا الكناية عن شدة الخشوع بالسجود وبالبكاء.

وقوله تعالى: (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا) "أمر بالإعراض عنهم... وألا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه ، وأنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحى ، وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه ، وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبهم ، فإذا تلى عليهم خروا سجّدا وسبحوا الله تعظيماً لأمره، ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزلة وبشّر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد فى قوله : (إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) ، (وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)"(١).

بيان شأن الصلاة فى إطار أسلوب الاستفهام الإنكارى وتعلقه بالتوبيخ والتعجيب وما إليهما فى هذا المجال :

اتصل بيان شأن الصلاة بإنكار تركها ، والتعجيب من حال من لم يدركوا هذا الشأن مع ظهوره وظهور الأدلة عليه.

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٤٦٩.

وجاء أسلوب الاستفهام الإنكارى متعلقاً بكثير من الأغراض التى يحققها فى سياقه كالتعجيب أو التوبيخ وفقاً لما يقتضيه المقام.

وأسلوب الاستفهام زاخر بالدلالات ، متعدد الوظائف ، فهو من أدل الوسائل البلاغية على المعانى التى يرد لأجلها فى سياقه. فإذا ورد فى مقام الإنكار واقترن بالمبالغة فى الذم والتوبيخ لما صدر عنه من الغضب أو الاستهجان، ورد الأسلوب شديد الوقع ، بعيد الدلالة على هذه المعانى.

فإذا ورد على هذا النسق فى إطار تتالى أساليبه ، واستخدام الألفاظ المعبرة عن أغراضه بلغ الأسلوب مبلغاً لا يحققه غيره فى مقامه.

ومما ورد فى ذلك مبيناً شأن الصلاة ، اقتراناً بمواقف يصورها القرآن الكريم ، ويعجّب من أصحابها ، فى إنكار ووعيد ، يتصل فيه النص على قُبح ما فعلوه تهاوناً بالصلاة وشأنها ، بهول العاقبة المترتبة عليه ، قول الله تعالى فى سورة العلق : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ).(١)

فدلالة الاستفهام هنا على تعظيم شأن الصلاة قامت على مجموعة من الأسس البلاغية واللغوية الدالة ، منها :

تكرار أساليب الاستفهام الإنكارى الدال :

والتكرار واضح فى تتاليه ، موجَّه إلى المخاطب ، معرض عن المستفهم عنه، مشير إليه بالوصف "كذَّب – وتولَّى" مما يشير إلى منطلق التعجيب والتوبيخ والإنكار ، ويلتقى فيه التكذيب الذى هو عمل القلب بالتولّى الذى يتضمن مظاهره العملية.

ويصرح بالنص على الفعل المذموم موضع الإنكار والتوبيخ ؛

---

(١) سورة العلق : الآيات ٩ : ١٩ .

فهو : "ينهى عبداً إذا صلى" ، فلم يقتصر على تكذيبه وتوليه فى ذاته ، بل تجاوز ذلك فراح : "ينهى عبداً إذا صلى" .

وأخذت دلالات الاستفهام "أرأيت" فى تتاليه تجمع ذم المستفهم عنه وإنكار حاله ، وتعجيب المخاطب منه فى تهديد ووعيد ، فى قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى) فقوله تعالى "أرأيت" "فى الجمل الثلاث من الرؤية القلبية ، والمفعول الأول للأولى الموصول ، ومفعولها الثانى الجملة الشرطية الأولى بجوابها المحذوف ، اكتفاء عنه بجواب الشرطية الثانية ، إذ علم من ضرورة التقابل أن "أرأيت" الثانية تكرار للأولى" [١].

وإذا كان هناك من قال إن دلالة "أرأيت" فى تكرارها ثلاثاً هنا : للتوبيخ ، ومن قال : هى للتعجيب ، فلا تعارض فى ذلك ، فهى للتوبيخ باعتبار حال المستفهم عنه الذى : كذب وتولى ونهى عبداً إذا صلى ، وللتعجيب من شأنه باعتبار حال تجاوزه التكذيب والتولى فى تعلقهما بنفسه إلى النهى عن الصلاة ، وليس ذلك بنهيه مكذب مثله ليبقى على تكذيبه ، بل نهى النبى ﷺ "فقد مرّ أبو جهل برسول الله ﷺ - وهو يصلى ، فقال: ألم أنهك ؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ فقال: أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى نادياً ؟" [٢] ، "لأملأن عليك هذا الوادى إن شئت خيلاً جُرداً ورجالاً مُردا ..." [٣].

ثم يتلو ذلك أسلوب استفهام جامع لأطرافه ، زاخر بمعانى التهديد والوعيد بعد الإنكار والتعجيب والتوبيخ ، وذلك فى قوله تعالى(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) وهو استفهام متعلق بما تضمنه قوله تعالى :(أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى) من الشرط بإن ، فجملة "(أَلَمْ يَعْلَمْ ...) جواب الشرط ، وصح ذلك كما صح فى قول [القائل] : إن أكرمتك تكرمنى ، وإن أحسن إلى زيد فهل تحسن إليه" [٤]

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٣٠ : ٤٠٦.
(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ٢٧١.
(٣) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى بن عثمان : ٤ : ٢٨٧.
(٤) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ٢٢٤.

وقد تضمن قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) إيجازاً بحذف مفعول يرى فورد دالاً على الإطلاق دون تعيين أو تحديد ، ملائماً بذلك سياق التهديد والوعيد لمطلق التكذيب والتولى ومعنى الطغيان المذكور قبله فى قوله تعالى : (كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى) وعاقبته.

ومن هذه الأسس أيضا : تكرار أداة الزجر والردع "كلا" التى لاءمت دلالات هذا الاستفهام ومقام الكلام وحال الخطاب.

وهى تمثل فى موضعها هنا انتقالاً جامعاً شديد الوقع على النفس بإظهار عاقبة مضمون ما قبلها من أساليب الاستفهام مما استوجب التوبيخ والتعجيب.

يقوى ذلك ورودها مرافقة "اللام" الموطئة للقسم فى قوله تعالى : (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) فاللام وإنْ الشرطية هنا وشرطها "لم ينته" وجوابها "لنسفعن بالناصية" بمعنى : "والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر لنسفعن بالناصية"(١).

ومنها : التأكيد بالقسم وما لازمه من تأكيد باللام ونون التوكيد والدلالات اللغوية:

والتأكيد بالقسم اقترن بتأكيد جواب الشرط باللام ونون التوكيد فى : " لنسفعن" ؛ أما دلالة الفعل "نسفع" فقد اتخذت موضعها الدال فى هذا الإطار ، لما تدل عليه من معنى "القبض على الشىء وجذبه بشدة" (٢)، وفى ذلك من دلالات الهول والشدة والإهانة ما يتضح فى اتصال الفعل "نسفع" بالناصية خاصة دون غيرها.

فالسفع بالناصية على هذا النحو بمعنى "لنأخذنّ بناصيته ولنجرّنه إلى النار "(٣).

وتخير الناصية دون غيرها هنا له دلالته فهى : "مَنبت الشعر فى مقدَّم الرأس، لا الشعر الذى تسميه العامة الناصية ، وسمى الشعر ناصية

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٣٠ : ٤٠٦ .
(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ٢٧١ .
(٣) ضياء التأويل : فوديى بن عثمان : ٤ : ٢٨٧.

لنباته من ذلك الموضع ، وقيل فى قوله تعالى – هنا – : "النسفعَنْ بالناصية ، أى لنُسَوِّدنَّ وجهه، فكفَتْ الناصية لأنها فى مقدّم الوجه من الوجه"(١).

ومنها: ما تتضمنه التراكيب من الوصف وتقابل المعانى بين دلالات التكريم والإهانة:

والناصية موضع السجود ، والسجود من أعظم أعمال الصلاة ، وتعظيمه سموّ وقرب إلى الله ، والنهى عنه – أو عن الصلاة – بُعد وذلة ، ومن هنا تقابل حال هذا الناهى من الوعيد والعاقبة المهينة ، بحال المنهى الساجد وما اتصل به من الثناء والتقرب إلى الله تعالى.

فالناصية التى اختيرت لبيان هول الجزاء ، أعيد ذكرها بالبدل "لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة" ثم وصف البدل "ناصية" النكرة بما هو أوفى بتمام المعنى المراد فى : "كاذبة خاطئة" واختيرت خاطئة – دون مخطئة – بياناً لعظم ما اقترفت مما هو معروف ، ولا يخفى ما فى هذا التجاور للفظتى "الناصية – ناصية" بالبدل والإظهار فى موضع الإضمار من بيان تلك المعانى.

وفضلاً عن ذلك أسند الكذب والخطأ إلى الناصية دون غيرها على سبيل المجاز الحكمى لعلاقتها بصاحبها ، ولتخصيصها ، والإشارة إلى ما استوجب إهانته فى أشد صورها.

وقابل تنكير ناصية – هنا – ووصفها تهويناً من شأنها ، تنكير "عبداً" وإتباعه بما بيَّن شأنه "إذا صلى" تعظيماً لهذا الشأن.

هذا فضلاً عن دلالات الأفعال المتقابلة مما ناسب المقام فى: "فليدع ناديه. سندع الزبانية" من وعيد شديد ، التقى فيه معنى العجز المطلق بمعنى القهر والقوة المطلقين ولا تخفى دلالة السين وما تتضمنه من تأكيد دلالة هذا الوعيد ، ثم تكرار الزجر بـ "كلا" وإتباعها بالنهى والأمر فى : (كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) بهذا التجاور والعطف الجامع لدلالة تأكيد فضل السجود وأثره فى حصول القرب من الله تعالى.

---

(١) لسان العرب : ابن منظور . مادة"نصا"

اقتران الاستفهام الإنكارى بغرضى النفى والتقرير ودلالته هنا :

ولقد أشار الأسلوب القرآنى العظيم إلى تعظيم شأن الصلاة باستفهام إنكارى جامع فى قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا...) (١) "والمفسرون على أن هذا الاستفهام معناه النفى ، فحينئذ هو خبر ، (أى): لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه". (٢)

فالتعبير باسم التفضيل "أظلم " فى إطار الاستفهام الذى غرضه النفى على هذا الوجه ، تضمن تعظيما لشأن الصلاة ، وتعظيماً لشأن المساجد ، وتعظيماً لشأن ذكر اسم الله فيها خاصة ، واقترن ذلك بعطف قوله تعالى : "وسعى فى خرابها" تنبيهاً إلى فضل إعمار المساجد والسعى فيه تعظيماً لشأنها كذلك.

أما ما قيل من أن حرف الجر" من" محذوف مع "أنْ" (إعمالا) لم قبلها فيها حتى تكون فى موضع نصب ، أو يكون "أن يذكر" بدلا من المساجد ، (بمعنى): "ومن أظلم ممن منع أن يذكر" (٣) ، فلذلك دلالته أيضا المتعلقة بتعظيم شأن ذكر الله من وجهين : الأول : أن إعمال الفعل منع فى "أن يذكر" أى منع ذكر الله بدلاً من القول: منع من ذكر الله أبلغ لما فيها من إيراد المفعول المؤول بالمصدر وصلته بالفعل أقوى دلالة على المعنى من أن يكون تعلقه به ناشئاً عن الجر ونحوه ، وفيه – فضلاً

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١١٤.

(٢) البرهان فى علوم القرآن : الزركشى : ٣ : ٧٤ . وتوهم بعض الناس أنه إذا أخذت الآيات على ظواهرها أدى إلى التناقض لأنه يقال : لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ولا أحد أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها (كما ورد هنا وفى سورة الأنعام الآية ٩٣ ، وسورة السجدة الآية ٢٢) وجوابه على طرق : (منها) : تخصيص كل واحد فى هذه المواضع بمعنى صلته كأنه قال : لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله ولأحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً وكذلك باقيها. (انظر : البرهان : الزركش : ٣ : ٧٤ ، ٧٥).

(٣) معانى القرآن : الأخفش الأوسط : ١ : ١٤٤. وهو يقول فى ذلك إنما هو (أى المعنى) "من أن يذكر" ثم يعقب بالعبارة المذكورة فى هذا الموضع.

عن ذلك – الإيجاز الدال.

والثاني : وهو أن يكون قوله تعالى : "أن يذكر" بدلاً من المساجد ، فله دلالته البلاغية أيضا على جعل الذكر في سمو شأنه معادلا للمساجد التي يذكر فيها اسمه عز وجل لما بينهما من التلازم المبني على ارتفاع شأن المساجد لاقترانها بذكر الله وإقام الصلاة.

ويتعلق الاستفهام بغرض التقرير والنفي بيانا لفضل الصلاة في إطار المفاضلة ، ومنه قوله تعالى: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (١) ، فقد ورد الاستفهام هنا في تركيب "دال على نفي التشابه" (٢) ، ونفي التشابه المشار إليه هنا قائم على إيجاز الحذف الذي يفهم بدلالة السياق ، فالآية التي قبل هذه : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)(٣) فكأنه قيل : "أهذا الذي هو هكذا خير أم من هو قانت آناء الليل فأضمر المبتدأ"(٤).

وقد قام بيان شأن الصلاة والمصلي هنا – فضلاً عن ذلك – على الوصف بالقنوت ، وهو لفظ جامع لمعاني الخشوع والطاعة ، وجعْل ظرفه "آناء الليل" تمييزا لفضل صلاة الليل المؤكد في مواضع أخرى كثيرة في القرآن الكريم (٥) ، واقتران السجود بالقيام الواردين حالين للقانت في إطار حال ثالثة تتمم معنييهما ، وتؤكد معنى القنوت المتقدم وذلك في قوله تعالى : (يَحْذَرُ الْآخِرَةَ) وعطف "ويرجو رحمة ربه" عليها ، بياناً لكونه بين الخوف والرجاء ، وكذلك الإشارة بالثناء إليه مقابل ذم نقيضه في استفهام غرضه النفي كذلك في قوله تعالى : (قُلْ هَلْ

---

(١) سورة الزمر : الآية ٩ .

(٢) البيان في روائع القرآن : تمام حسان : ٢ : ١٩٧.

(٣) سورة الزمر : الآية ٨.

(٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : الزملكاني : ٣٠٠.

(٥) كقوله تعالى: (فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) . (سورة المرسلات : الآية ٢٦).

يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ، ثم ما تبع ذلك من القصر فى قوله تعالى : (إنما يتذكر أولو الألباب) .

ويشير الزمخشرى إلى كون ذلك محتملاً معنى التشبيه "أى: كما لا يستوى العالمون والجاهلون كذلك لا يستوى القانتون والعاصون".[١]

ورود الاستفهام الإنكارى المعظِّم شأن الصلاة فى إطار أسلوب "الالتفات" ودلالته:

والإعراض عن الإيمان والصلاة مع وضوح الدلائل وشدة الافتقار إلى الصلاة للنجاة من أهوال القيامة ، اقتضت الجمع بين الاستفهام الإنكارى والقسم والالتفات عن المعرضين ، قال الله تعالى : (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون)[٢].

فظهور دلائل الإيمان التى تضمنها هذا القسم ، من مقسم به يمثل جوانب من دلائل قدرته سبحانه ، ومقسم عليه يمثل أحوال الإنسان ومعاناته حالا بعد حال منذ يولد إلى أن يبعث ويحاسب ، مما أكد فى إطار القسم باللام والنون الثقيلة فى قوله تعالى : (لتركبن طبقا عن طبق) يقتضى الإيمان الثابت.

والإعراض عن الإيمان ناسبه الالتفات عن المعرضين فى هذا التحول من الخطاب فى "لتركبن" إلى الغيبة فى (فما لهم لا يؤمنون).

والاستفهام الإنكارى مبنى على هذا الإعراض مع وضوح الدلائل ، ومعناه: "فأى شىء يمنعهم من الإيمان بالبعث الذى هو من

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٣٩٠.

(٢) سورة الانشقاق : الآيات : ١٦ : ٢١ ما وسق : ما ضمّ وجمع ، "لتركبن طبقاً عن طبق" أى لتعانون حالا بعد حال وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال ، ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها (فى ظلال القرآن : سيد قطب : ٣٠ : ٣٨٦٩)، وذلك يتضمن : أطوار الحياة وأدوار العيش وغمرات الموت ثم أمور البرزخ وشئون البعث ودواهى الحشر ... فأول أطباق الإنسان جنين ثم وليد ثم رضيع ثم فطيم ثم يافع ثم رجل ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ثم ميت وبعده نشر ثم حشر ثم حساب ثم وزن ثم صراط ثم مقرّ. (نظم الدرر: البقاعى : ٢١ : ٣٤٧).

جملة الممكنات التى تشملها قدرته عز وجل ويحيط بها علمه جل جلاله"(١).

ورود الاستفهام الإنكارى فى إطار تفصيل حال المخاطبين به فى "طباق" يوضح دلالات الإنكار والتعجيب :

قال الله تعالى : (هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَزِفَتْ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ* وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).(٢)

فالاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى : (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ) ورد فى هذا الإطار المفصّل للوصف الداعى إلى الإنكار من الضحك والغفلة، وتجاور إثبات الضحك – كناية عن الاستهزاء – ونفى البكاء – كناية عن التجرد من الخشوع الواجب حال سماع آيات الله ، بمعنى "أفمن هذا الحديث (أى) القرآن "تعجبون" إنكاراً "وتضحكون استهزاء مع كونه أبعد شىء من ذلك ، "ولا تبكون" حزناً على ما فرطتم فى شأنه وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة "وأنتم سامدون" لاهون" (٣).

وهذا البيان الوصفى لما دعا إلى التعجيب والإنكار اجتمع لدى الخطاب بقوله تعالى: (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) "فالفاء لترتيب الأمر أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالتعجب والضحك ،

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٣٠ : ٢٩١.

(٢) سورة النجم : الآيات ٥٦ : ٦٢ . "هذا نذير" يعنى : محمدا - ﷺ - " من النذر الأولى" أى من جنسهم أرسل كما أرسلوا ، كما قال الله تعالى (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ) ، (أَزِفَتْ الآزِفَةُ) أى: اقتربت القريبة وهى القيامة ، "ليس لها من دون الله كاشفة" أى لا يدفعها إذا من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه ، والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذى يخشى وقوعه فيمن أنذرهم ... "تعجبون" من أن يكون صحيحا "وتضحكون" منه استهزاء وسخرية "ولا تبكون" أى كما يفعل الموقنون به ... "وأنتم سامدون" معرضون ... غافلون. تفسير القرآن العظيم : ابن كثير : ٧ : ٢٢٩ ، ٣٠٠ . مكتبة الإيمان . الطبعة الأولى . ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٣) روح المعانى : الألوسى : ٢٧ : ٧٠.

وحقية مقابلته بما يليق به ويدل على عظيم شأنه ، أى وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله تعالى الذى أنزله واعبدوه جل جلاله" (١).

ربط الاستفهام الإنكارى بين "التكذيب بالدين" ومظاهره ، "والسهو عن الصلاة" وعقوبته :

قال الله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)(٢).

وأسلوب الاستفهام الإنكارى الوارد هنا فى مفتتح السورة فى قوله تعالى : "أرأيت" يفيد التنبيه ، وذلك لأن "أرأيت [إذا] وليها المفعول به فإنها تفيد التنبيه وهو قريب من الأمر"(٣).

وللتنبيه فى إطار الإنكار فضل بيان غرابة الأمر على وجه التعجيب منه، فإذا اقترن الوصف المعنوى – كما هو الحال هنا – بمظهره العملى – تم ذلك واتضحت الغاية منه على وجه حسى ظاهر.

ولقد تعلق هذا الاستفهام الإنكارى الذى ينبه إلى هول التكذيب بالدين وما يتعلق به من وصف المكذب بأنه "يؤذى اليتيم ولا يطعم

---

(١) نفسه .

(٢) سورة الماعون كاملة. يدع اليتيم: يقهره ويظلمه ولا يحسن إليه ... (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) قيل : المنافقون الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر ولهذا قال "للمصلين" الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون إما عن فعلها بالكلية وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعاً ... وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالبا ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها. فاللفظ يشمل ذلك كله ، ولكل من اتصف بشىء من ذلك قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها وكمل له النفاق العملى ... (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) أى لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما يُنتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. (انظر : تفسير القرآن العظيم : ابن كثير: ٨ : ٢٨٤ ، ٢٨٥).

(٣) أساليب الاستفهام فى القرآن : عبدالعليم السيد فودة : ٢٣٢ . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ١٩٥٣م.

المسكين" [١] ، بالتنبيه إلى هول العذاب "لمن ترك عماد الدين وهى الصلاة وقنطرة الإسلام ، والزكاة ، وتلبس بالرياء الذى هو الشرك الخفى" [٢].

ويرى الزمخشرى أن هنا مجازاً حذف فكأنه قيل : "فإذا كان الأمر كذلك فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها، أولا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ " [٣]، ثم قال: "وطريقة أخرى أن يكون فذلك عطفاً على الذى يكذب ، إما عطف ذات على ذات ، أو صفة على صفة، ويكون جواب أرأيت محذوفاً لدلالة ما بعده عليه كأنه قيل: أخبرنى وما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤذى اليتيم ولا يطعم المسكين أنِعم ما يصنع، ثم قال: فويل للمصلين ، أى إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين ، على معنى فويل لهم، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم ، لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين غير مزكّين أموالهم"[٤].

وفى إطار ذلك يمكن أن يلاحظ ما بين أجزاء الأسلوب من الاتصال والترابط، فهنا إشارة واضحة اتخذت موضع الربط بين الاستفهام وما تبعه من وصف المكذب بالدين ، وبين ذكر المصلين وما تبعهم من وصف كذلك ، وذلك فيما ورد بينهما من قوله تعالى: "فويل للمصلين" ، فالفاء أشارت إلى هذا التعليق ، فالقسم الأول نشأ عن إيضاحه توقُّع ذكر جزائه ، فذكر ذلك الجزاء ، واقترن بالجزء الثانى فى شكل إيضاح وصفى له ، فدخل الاثنان فى إطار الإنكار صدوراً عن الاستفهام المتقدم ، وإشعارا بأن ما ذكر من الوصف هنا وهناك متصل فى إطاره وفى إطار ما ذكر من الويل الوارد فى لفظ نكرة دالة على مدى هوله.

---

(١) الكشاف الزمخشرى : ٤ : ٢٨٩ .
(٢) ضياء التأويل : فوديى بن عثمان : ٤ : ٢٩٧.
(٣) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ٢٨٨.
(٤) السابق : ٢٨٩.

القسم الرابع

يتناول هذا القسم بالدراسة والتحليل البلاغى وما يعين عليه من التحليل اللغوى والصرفى ما تعلق بالأمر بالصلاة من صيغ لغوية ، وورد فى مقدمتها قوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) ، لتبيُّن ما تدل عليه صيغة المفاعلة التى هى مصدر "حافظوا" أى "محافظة" مما يتعلق بشأن الصلاة، وذلك بتتبع ما تنطوى عليه من دلالات وما تتصل به من سياق السورة، وما ذكر فى إطارها من صلاة الخوف التى لم يُرخّص فى تركها أو تأخيرها.

وكذلك تمتد الدراسة لتشمل – هنا – تعدد ما يتعلق بذكر الصلاة من الأساليب الوصفية وتكررها ، والاستهلال فى سورة "المؤمنون" بقوله تعالى "قد أفلح المؤمنون" ودلالته وتعلقه بسياقه. وتشتمل – فضلاً عن ذلك – على دراسة تنوع الوصف الجامع بألفاظ دالة على شأن الصلاة والمصلين مثل : المخبتين – المحسنين – القانتين ، ودلالة كل منها فى سياقه.

فاشتمل هذا القسم على الجوانب الآتية :

- صيغة المفاعلة ودلالتها على العناية بشأن الصلاة لغوياً وبلاغياً.
- تعلق معنى الأمر "حافظوا" بدلالة المبالغة.
- الربط بين المحافظة على الصلاة والمداومة عليها فى السياق القرآنى الكريم.
- اقتران ذلك بغيره من الصيغ الدالة وتعلق ذلك بالسياق الذى ورد فيه.
- علاقة الأمر بالمحافظة بذكر صلاة الخوف فى إطار الدراسة البلاغية للأسلوب.
- علاقة ذلك بقوله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا).

- الإظهار فى موضع الإضمار ودلالته هنا.
- بيان الشأن فى إطار تعدد الوصف وغاياته البلاغية.
- الاستهلال بقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وتعدد الوصف ودلالاته.
- دراسة الفصل والوصل فى هذا السياق ودلالاتهما.
- التعريف والتنكير ودورهما فى بيان الشأن هنا .
- تنوع الأساليب الوصفية المتعلقة ببيان شأن الصلاة فى السياق القرآنى العام وما تحققه من أغراض بلاغية.
- الإشارة بالوصف الجامع الدال إلى شأن المصلين :
  - لفظ "المخبتين" ودلالته فى سياقه.
  - لفظ "المحسنين" ودلالته فى سياقه.
  - لفظ "القنوت" ودلالته فى سياقه.

صيغة "المفاعلة" ودلالتها على العناية بشأن الصلاة لغويا وبلاغياً :

قال الله تعالى : ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ﴾ (١).

فقوله تعالى:"حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ"يأتى فى مقدمة صيغ الأمر الكثيرة التى زخر بها القرآن الكريم فى مجال الأمر بإقامة الصلاة وذلك لما يشتمل عليه من المعانى والدلالات المتصلة بصيغة المفاعلة التى جاء عليها الفعل "حافظوا" ، فهو من المحافظة ، والمعروف أن هذه الصيغة إنما تدل على المشاركة فى الحدث الذى يتضمنه الفعل ، مما يترتب عليه وضوح دلالتها المتعلقة بجانبى العمل والجزاء.

وإيضاح ذلك أن "المحافظة لا تكون إلا بين اثنين ، كالمخاصمة ، والمقاتلة ، ... فكأنه قيل: احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذى

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٣٨.

أمرك بالصلاة ، وهذا كقوله تعالى : "فاذكروني اذكركم" وفي الحديث : "احفظ الله يحفظك" (وتحتمل دلالة هذه الصيغة معنى آخر وهو) : أن تكون المحافظة بين المصلي والصلاة ، فكأنه قيل: احفظ الصلاة تحفظك الصلاة ، (وحفظ الصلاة للمصلي على وجوه منها): أن الصلاة تحفظك عن المعاصي ، قال تعالى : (إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) (ومنها) : أن الصلاة تحفظه عن البلايا والمحن ، قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ) ، ... (ومنها) : أن الصلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصليها ، قال تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ) ، ولأن الصلاة فيها القراءة ، والقرآن يشفع لقارئه" [١].

تعلق معنى الأمر ((حافظوا)) بدلالة المبالغة :

ويتعلق معنى الأمر "حافظوا" بدلالة المبالغة التي تتضمنها صيغته محققاً ثراء معنوياً متصلاً بأداء الصلاة على نحو خاص ؛ فيصير المعنى: "داوموا على أدائها لأوقاتها من غير إخلال" [٢] ولعل ذلك ما دعا إلى تفسير الأمر بالمحافظة بأنه: "المحافظة على جميع شرائطها ، (من) طهارة البدن ، والثوب ، والمكان ، والمحافظة على سترة العورة ، واستقبال القبلة ، والمحافظة على جميع أركان الصلاة ، والمحافظة على الاحتراز عن جميع مبطلات الصلاة سواء كان ذلك من أعمال القلوب أو من أعمال اللسان ، أو من أعمال الجوارح ، وأهم الأمور في الصلاة رعاية النية ، فإنها المقصود الأصلي من الصلاة ، قال تعالى:(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي) فمن أدى الصلاة على هذا الوجه كان محافظاً على الصلاة وإلا فلا" [٣].

الربط بين المحافظة والمداومة في السياق القرآني الكريم :

والسياق القرآني الكريم يربط المحافظة على الصلاة بالمداومة ،

---

(١) مفاتيح الغيب : الرازي : ٢ : ١٥٨ .
(٢) روح المعاني : الألوسي : ٢ : ٥٤٨ .
(٣) مفاتيح الغيب : الرازي : ٢ : ١٥٨ .

مشيرا – بما يتضمنه الوصل بالواو – إلى ما بينهما من الفروق اللغوية الدالة على ضرورة تلازمهما لكونهما غير مترادفين أو مكررين.

ففى سورة المعارج ورد وصف المصلين بكونهم " عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ "، وكونهم : " عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ " فى هذا السياق الممتد الذى يجمع العديد من صفات المصلين فى قوله تعالى : (إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ).(١)

فأسند إلى المصلين المداومة على الصلاة ، بطريق "اسم الفاعل" الدال على ثبوت ذلك الإسناد وما يتضمنه من معنى "(المواظبة) على أدائها (فهم) لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل ..." (٢) ثم أسند إليهم فعل المحافظة بطريق المضارع المسند إلى ضميرهم ، ليدل بدوره على مراعاتهم " إسباغ الوضوء لها ومواقيتها [وأنهم] يقيمون أركانها ويكملونها بسننها وآدابها ويحفظونها من الإحباط باقتراف المآثم. فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات ، والمحافظة إلى أحوالها"(٣) ، فضلاً عما يتضمنه بصيغة المضارعة من دلالة الاستمرار والتجدد مما يؤكد الغاية منه.

وورود هذين المسندين : "دائمون" و "يحافظون" فى إطار تعدد وصف المصلين بصفاتهم المتتالية والمترابطة بواو الوصل لقوة ما بينها من المناسبة مع التنوع، اتخذ مجاله لإيضاح ما ينبغى أن يرافق الصلاة

---

(١) المعارج : الآيات ١٩ : ٢٣.

(٢) (٢) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٥٩

من صفات ، وظهر خلاله الاسم الموصول والضمير العائد على المصلين في كل مما ذكر بيانا لشأن ما استقل به كل جانب على حدة.

واتصل جميع ذلك بإطار قرآني عام يراه المتتبع للسياق القرآني الكريم في سورة "المؤمنون" وغيرها تحقيقا لدلالة واحدة.

ورود الفعل الدال على "المحافظة" مقترنا بغير ذلك من الصيغ:

وورود الفعل الدال على المحافظة على الصلاة في السياق القرآني يتخذ دلالاته الواضحة من خلال ملازمته ما يرد في سياقه من الصيغ الأخرى.

ففي قوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ) نجد جمع الصلوات يشير إلى أهمية المحافظة على كل صلاة حيث لا يجزئ البعض عن غيره ، وعلى هذا الجمع عطف "سبحانه" مفرداً من جنسه في قوله تعالى : (والصَّلاةِ الْوُسْطَى) عطفا للخاص على العام "وإنما أفردت وعطفت على (الصلوات) لانفرادها بالفضل".[1]

وفي الوقت نفسه نجد العطف – في الآية الكريمة – يقوم بدور آخر يزيد إيضاح دلالة المحافظة وتأكيدها ؛ حيث عطف على "حافظوا" الأمر "قوموا" ليكون متعلقه المبين غاية هذا القيام هو قوله : "لله" ، وليكون ذلك القيام متلبسا بحال مخصوصة ماثلة في قوله تعالى : "قانتين".

وهكذا صارت جملة "وقوموا لله قانتين" مبرزة ومتممة غاية الجملة السابقة: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الْوُسْطَى) في هذا التتابع الإنشائي الدال، والمضمون المتئام لإيضاح هذه الدلالة ؛ ذلك أن ورود القنوت حالاً في الجملة الثانية منهما دل على معنى المحافظة ومداها ، نظراً لما يتعلق به من أصل لغوي.

---

(١) السابق : ٣٧٦/١ والأكثرون على أنها صلاة العصر لما أخرج مسلم من حديث علي - كرم الله وجهه- "أنه ﷺ قال يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله تعالى بيوتهم نارا"، وخصت بالذكر، لأنها تقع في وقت اشتغال الناس (بأمور معيشتهم) انظر : روح المعاني : الألوسي: ٢: ٥٤٨ ، والكشاف : الزمخشري : ١ : ٣٧٥.

متصل بالطاعة والذكر والخشوع وتتميم الطاعة "على أحسن وجه من غير إخلال بشيء مما ينبغي فيها ، ويؤيد [ذلك] ما أخرجه ابن جرير عن مجاهد قال: القنوت طول الركوع ، وغض البصر والخشوع ، وأنه لا يلتفت ، وأن لا يقلب الحصى، ولا يعبث بشيء ، ولا يحدث نفسه بأمر من أمور الدنيا" [١] ، ونظراً كذلك لما يتعلق به معناها من "الدعاء" [٢] كذلك "وإطالة القيام فى الصلاة وإدامة الطاعة والإخلاص فى العبادة". [٣]

تعلق هذه المعانى "بسياق السورة" التى وردت فيها :

ولعل اجتماع هذه المعانى مع معنى "المحافظة" وذكر الصلوات جمعاً وإفراداً ، والقيام لله تعالى على هذا النحو المذكور له مغزاه فى سياق السورة المباركة ؛ فقد ورد ذلك "عقيب الحض على العفو والنهى عن ترك الفضل لأنها [أى الصلاة] تهيئ النفس لفواضل الملكات لكونها الناهية عن الفحشاء والمنكر ، ... وقيل : أمر بها خلال بيان ما تعلق بالأزواج والأولاد من الأحكام الشرعية المتشابكة إيذاناً بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأن أولئك ، فكأنه قيل : لا يشغلنكم التعلق بالنساء وأحوالهن، وتوجهوا إلى مولاكم بالمحافظة على ما هو عماد الدين ومعراج المؤمنين" [٤].

صلة المحافظة على الصلاة بالعقيدة :

وقد تعددت وجوه الحث على المحافظة على الصلاة فى غير ذلك ، فاتصلت صفة المحافظة بصفة الإيمان لتبرز الجانب العملى الدال عليه ، والمظهر المحقق غاية الأمر " حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ " ، حتى صار تلازم الإيمان والمحافظة على الصلاة مؤكدا على نحو ما ورد فى قوله تعالى : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٢ : ٥٤٩.
(٢) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى بن عثمان بن صالح : ١ : ٩٦.
(٣) روح المعانى : الألوسى : ٣ : ١٥١.
(٤) روح المعانى : الألوسى : ٢ : ٥٤٨ ، وانظر أيضاً : البحر المحيط : أبو حيان الأندلسى : ٢ : ٢٣٩.

الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ)[1]، مما يشعر بوضوح بأن المحافظة على الصلاة دليل على الإيمان وسلامة العقيدة.

تتميم معنى ((المحافظة)) بإيضاح كيفية صلاة الخوف ووجوبها:

يتضح معنى المحافظة بعد وروده فى صيغة الأمر "حافظوا". وما اقترن به وعطف عليه فى قوله تعالى : "وقوموا" ، وما لازمه من حال فى قوله تعالى "قانتين" ، بتضمنه الإشارة إلى وجوب ذلك فى جميع الأوقات والأحوال، فيرتب السياق القرآنى عليه قوله تعالى : (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[2] ، تتميما لمعنى المحافظة وما يتضمنه من "وجوب الصلاة حال المحاربة ، وعدم جواز تأخيرها عن الوقت". [3]

لقد قام أسلوب الشرط بإن التى تفيد الشك ، فى ذلك ببيان دلالة هذا التتميم، موضحا وجوب الصلاة حال الخوف "من عدو أو غيره"[4] ، كما قام التقابل بينه وبين أسلوب الشرط "بإذا" التى تفيد الدلالة على الزمن المستقبل فى قوله تعالى: (فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) ببيان حال الأمن المقابلة وما يجب فيها كذلك ، أى : "إذا زال خوفكم "فاذكروا الله..." بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون فى حال الخوف وفى حال الأمن" [5].

كما قام التضاد بين فعلى الشرط فى المتقابلين "خفتم" ثم "أمنتم" باستغراق جميع الأحوال التى تتضمنها جميع الأوقات ، ليرد جواب الشرط فى الحالين مؤكدا وجوب المحافظة والمداومة على الصلاة وذكر الله.

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ٩٢ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣٩ .
(٣) روح المعانى : الألوسى : ٥ : ١٣٢.
(٤) الكشاف : الزمخشرى : ١ : ٣٧٦.
(٥) نفسه .

ولقد ناسب حال الخوف أن يرد جواب الشرط بأسلوب الإيجاز مع العطف مقتصراً على التصريح بالحال "فرجالا أو ركبانا" أى : "فصلوا راجلين أو راكبين"[١] ، بيانا للكيفية التى شرعت من أجل الإباحة لمقتضى ذلك الحال ، كما ناسب حال الأمن أن يكون الجواب بالأمر مفصلاً مقترنا بغايته فى أسلوب تشبيهي دال حيث قال تعالى: (فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) أى: "فصلوا صلاة الأمن ، وعبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها ، ... ذكراً مثل ما "علمكم" من الشرائع وكيفية الصلاة حالتى الأمن والخوف"[٢].

بلاغة الأسلوب القرآنى فى بيان كيفية هذه الصلاة فى سياق آخر:

ولقد تولى الأسلوب القرآنى الكريم إيضاح كيفية هذه الصلاة فى سياق آخر ، مؤكدا وجوبها وعدم الترخيص فى تركها ، ففصل القول ، واتجه إلى أساليب التقسيم والشرط والاحتراس والأمر والتعليل وغيرها موضحاً ذلك.

قال تعالى : (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا).[٣]

فاستهل – سبحانه وتعالى – بالشرط المتضمن دلالة زمنية ، جاعلا الشرط والجواب المتضمنين رفع الحرج والإثم ، وإباحة القصر فى الصلاة فى إطار قيد شرطى آخر : (إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) فى إيجاز اكتفى فيه بالشرط لدلالة سابقه عليه ، واضعا علة ذلك فى جملة مستأنفة مجاورة له حيث قال سبحانه : (إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا).

ويأخذ السياق القرآنى الكريم فى بيان شأن تلك الصلاة ، مشيراً – فى تقسيم دال – إلى ما أولاها من العناية والتفصيل.

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٢ : ٥٥٠.
(٢) نفسه .
(٣) سورة النساء : الآية : ١٠١.

فبعد الاستهلال السابق بالجملتين الشرطيتين اللتين وَضعتا قاعدة التشريع ومنطلقه ، انتقل إلى بيان الكيفية مستهلا بالشرط "إذا" كذلك ، متناولا تلك الكيفية بالتفصيل الشامل لكل جوانب الموقف ، وما يطرأ عليه من احتمالات ، رابطاً كل موقف بعلته ، آخذاً بالأيدى لتفهم الحكمة المتصلة بوجوب ذلك الحكم.

قال تعالى : (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ) (١) ، فعطف هذا الإيضاح المفصل على ذلك الإجمال مبينا هذه الكيفية ، مستهلاً بما استهل به من قبل بالشرط إذا ، وورد الماضى "أقمت" مجازاً عن إرادة الإقامة بعلاقة المسببية ، ليدل على تحقق وقوعها عمليا فى النية والفعل وتلازمهما فى جانب الشرط ، ليرد الجواب بصيغة الأمر "فلتقم" مضارعاً مقترنا بلام الأمر مسندا إلى "طائفة منهم" فقط ، متبعاً ذلك بأمر آخر فى نفس الصيغة التى قبله "فليأخذوا" موضحاً ما يجب من أخذ الأسلحة فى تلك الحال ، ثم مبيناً بالشرط "إذا" كذلك ما ينبغى حال السجود ثم حال الفراغ منه من "الانصراف للحراسة" (٢) وما يكون من حال الطائفة الأخرى التى لم تصلِّ بعد وكيفية أدائها الصلاة.

وتتابعت فى هذا السياق صيغ المضارع المقترن بلام الأمر مسندا إلى واو الجماعة ، أو ما تعود إليه كما هو الحال فى : "فلتقم – فليأخذوا – فليكونوا – ولتأت – فليصلوا – وليأخذوا" بياناً لجوانب الأفعال المخصوصة التى شرعت هنا ، وإظهاراً لشأن ذلك الموقف الذى ينبه "المجاهدين إلى ناحية من شأنها أن تقوى الروح المعنوية فيهم، ... هى الالتجاء إلى الله والاتصال به عن طريق القيام بأحب واجب ديني إليه سبحانه ، وأقوى مزكٍّ للنفوس وهى الصلاة ، فترخّص لهم فيها كيفية خاصة لا تباح فى غير السفر والحرب ، وتأمر بالجمع بينها وبين أخذ الأسلحة والحذر ، ... وتشعرهم بأنهم فى جميع حالاتهم عباد الله

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٠٢.

(٢) روح المعانى : الألوسى : ٥ : ١١٤.

يجاهدون في سبيله ، ويهدون بأمره، ويخشون جلاله ، ويؤدون واجبه"[١].

بلاغة الأمر بالمحافظة على الصلاة ببيان عدم الترخيص في تركها:

وبعد استمرار الآية في إيضاح علة أخذ الأسلحة والحذر ، في قوله تعالى: (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً)، [٢] وإيضاحها حالا مخصوصة يرخص فيها بوضع الأسلحة في قوله تعالى: (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) [٣] ، تنتقل إلى بيان ما بعد الصلاة، مستهلة بالشرط "إذا" على هذا النحو : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ) فيرد هذا الجزء من الآية متصلاً بما قبله من الشرط "إذا" والدلالة الزمنية ومالابسها من أفعال الصلاة المتضمنة ذكر الله ، ثم ذكر في جميع الأحوال (قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ) بعد الصلاة ، ليصير المعنى العام الذي يحققه هذا الاتصال المعنوي بالأمر والشرط، والدلالتين الزمنية والفعلية : "داوموا على ذكره سبحانه في جميع الأحوال"[٤].

وانتقالاً من الحرب إلى الأمن يجتمع المتقابلان في إطار الآية الكريمة، لتظل دلالة المحافظة على الصلاة ووجوب المداومة عليها هي الغاية الملازمة لذلك البيان ، حيث قال تعالى : (فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتاً)[٥].

وهو تقابل يربط أطراف المعنى وجوانبه فقوله تعالى : " "فإذا اطمأننتم" أي أقمتم ، راجع إلى قوله تعالى : (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ) ولما كان الضرب اضطراباً وكنى به عن السفر ناسب أن يكنى

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت : ٢٥٥.
(٢) سورة النساء : من الآية ١٠٣.
(٣) سورة النساء : من الآية ١٠٣.
(٤) روح المعاني : الألوسي : ٥ : ١٣١
(٥) سورة النساء : من الآية : ١٠٣

بالاطمئنان عن الإقامة ، وأصله السكون والاستقرار أى إذا استقررتم وسكنتم من السير والسفر فى أمصاركم "فأقيموا الصلاة" أى أدوا الصلاة التى دخل وقتها وأتموا وعدلوا أركانها وراعوا شروطها وحافظوا على حدودها ، وقيل المعنى : فإذا أمنتم فأتموا الصلاة أى جنسها معدلة الأركان ، ولا تصلوها ماشين أو راكبين أو قاعدين" (١).

قوله تعالى : ((إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا)) وما يتضمنه من معنى المحافظة على الصلاة :

ويبلغ السياق فى هذا البيان مبلغه لدى قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتاً) :

فهذا تعليل جامع لجميع ما شرع قبله من فريضة الصلاة واستمرارها، ووجوب المحافظة عليها حال الأمن وحال الخوف ؛ وقد ورد فى موضعه من الآية مقررا ومؤكداً جميع ذلك ؛ فبعد تفصيل القول فى بيان كيفية صلاة الخوف ، وبعد بيان اتصال الصلاة والذكر بما بعد هذه الصلاة ، ليكون ذكر الله شاملاً حالى الأمن والخوف ، ورد هذا التعليل فى إطار موجز جامع لأسباب ما ورد قبله ، ليسمو شأن الصلاة فى النفوس ، ويُعلم ما لها من قدسية لا تهاون فيها.

وفى الفصل بين هذه الجملة وما قبلها واستهلالها بإن على هذا النحو بيان لكونها استئنافا له ، واردا على نحو لا يدع مجالا لاستفسار عما سلف قبله إلا وأجاب عنه فمهما نشأ عن ذلك من تساؤلات عن الأسباب التى دعت إلى فرض صلاة الخوف حال ملاقاة العدو أو تربصه بالمصلين ، أو تعجب من شأن تلك الصلاة التى تعترى النفوس خلالها أحوال الترقب والتخوف من هجوم أعدائها، أو غير ذلك من التساؤلات ، ترد جملة "إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا" لتجيب عنها وتعالج أسبابها ، بما توضحه من قدسية فريضة الصلاة وكونها: "كتاباً مفروضاً "موقوتاً " محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها فى شيء من الأحوال، فلابد من إقامتها [فى كل حال]... [و]

(١) روح المعانى : الألوسى : ٥ : ١٣٢.

لابد أن تؤدى فى كل وقت حسبما قدر فيه" (١).

ولقد تولت عناصر التأكيد بيان هذه الدلالة لتثبتها فى النفوس والعقول وتكفل لها ذلك الاستمرار الملازم لجانبى المداومة والمحافظة على فريضة الصلاة؛ يتضح ذلك فى : الاستهلال بإنّ التى تفيد التأكيد ؛ وفى تعريف لفظ الصلاة على هذا النحو الذى سُبق بتكراره مع كل بيان قبله لجانب منها ، وفى عدم الاقتصار على الحقيقة مجردة فلم يقل : إن الصلاة على المؤمنين كتاب موقوت، بل زاد لفظ "كانت" المتضمن تحقق وقوع ذلك قدراً وفرضاً واجباً لا جدال فيه، وفى العناية بذكر القائمين بحق هذا الفرض ، وهم "المؤمنون" خاصة، حيث لم يقل : إن الصلاة كانت كتابا موقوتا ، بل قال : على المؤمنين ، إشارة إلى ما يقتضيه الإيمان من حق واجب الأداء على الوجه المفروض ، وفى تنكير لفظ كتاب الذى يفيد تعظيم الشأن ، وفى إتباع ذلك اللفظ بنعته بقوله تعالى : موقوتاً فى نكرة مثله تفيد التعظيم كذلك وتبينه وتؤكده.

تكرار لفظ الصلاة بإظهاره فى موضع الإضمار ودلالته :

هذا فضلا عما تمثله جملة : (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتاً) فيما وردت بعده وبنيت عليه من تكرار لفظ "الصلاة" فى هذا السياق وحده خمس مرات ، مما يحمل الكثير من إشارات بيان الشأن وعظيمه ، وتأكيد دلالته ، وذلك فى قوله تعالى : (...فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ...) ثم فى قوله تعالى : (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ...) ثم فى قوله تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ...) ثم : (فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتاً).

حيث اقترنت أولا بمنطلق تشريع صلاة الخوف والظروف التى تحمل عليها فى قوله تعالى : (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ...) ، ثم اقترنت بإقامة الرسول ﷺ الصلاة فى تلك الحال المخصوصة (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ...) ، ثم بما يكون بعد انقضاء الصلاة من ذكر دائم ،

---

(١) نفسه .

ثم بحال الأمن حيث الأمر بإقامة الصلاة وإتمامها ، ليرد أخيرا ذلك التعليل المتضمن تقريراً واضحاً جامعاً فى قوله تعالى: (إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتاً).

ولقد حمل هذا التكرار الدلالة على تعظيم شأن الصلاة بالقصد إلى إظهار لفظها فى كل حال فى موضع الإضمار فى هذا التتابع الدال لجميع مراحلها وأحوالها وما لابسها من ظروف ، فضلاً عما تضمنه السياق من الفعل المضارع "يصلى" مسنداً إلى واو الجماعة ، فى قوله تعالى: (وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ).

إبراز العناية بشأن الصلاة فى إطار ((تعدد ما يتعلق بها من الصفات)) وتكرارها ومنطلق ذلك ودلالته البلاغية :

يرد ذكر الصلاة والمصلين وما يتعلق بهما من الصفات ، وما يترتب على اتصافهم بها من الجزاء فى إطار ذكر العديد من الصفات الجامعة التى يشهد السياق القرآنى الكريم تتاليها على نسق يظهر غاياتها وإيرادها على هذا النحو.

فالصلاة مذكورة فى كثير من المواضع ، وما يلزم من صفات واجبة للعناية بها وإقامتها ترد مذكورة فى تتاليها المعهود فى الكثير من المواضع كذلك.

ولقد شهد الوصف للصلاة والمصلين فى تعدده وسعته مجالات كثيرة ، ونظاماً أسلوبياً متعدد الوجوه.

فقد تستهل السورة من القرآن بذكر المصلين ، ويقترن ذلك الاستهلال بذكر جزائهم ، كما هو الحال فى سورة "المؤمنون" فى قوله تعالى : " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ"(١) وما تلا ذلك من صفاتهم.

وقد يتضمن السياق ذلك الذكر على نحو آخر فيرد خلاله كما فى قوله تعالى فى سورة الأعلى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١ .

فَصَلَّى) [١] ، وكما فى قوله تعالى فى سورة الفرقان ضمن وصف عباد الرحمن : (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) [٢].

وتتتالى فى ذلك الصفات الملازمة للمصلين الذين يتحقق فيهم ما يجب من شروط الصلاة حال إقامتها والاعتناء بشأنها ، فترد تلك الصفات مصدَّرة بالجزاء الذى يستحقونه ، أو معقبة به ، أو متوسطة بين تقدّمه عليها وإعادة ذكره فى صيغة أخرى مؤخراً ، ولجميع ذلك وغيره دلالاته من خلال ما ورد عبره من صور الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم.

أما الصفات التى ترد فى إطار ذلك التعدد ، فقد ترد مطلقة فى إطار ما يقتضى ذلك من مقام الكلام وحاله ، وقد ترد مقيدة بوصف معين يحدد دلالتها لتقتصر عليه ، وقد تصدر بما يشير إلى تميز المصلين وفضلهم واستثنائهم من عامة الناس فى مقام غير ذلك.

ولبيان غايات ذلك وأغراضه في كل حال ، يجب ملاحظة السياق القرآنى الكريم الذى ترد فيه هذه الصفات ، وهؤلاء الموصوفون ، وما يترتب على صفاتهم تلك من الجزاء ، فيرد مقدماً أو مؤخراً ، ترغيباً وحثاً ، مدحاً ، وثناء ، بياناً لشأنهم، أو تعريضاً بغيرهم ، كما هو الحال فى التكرار القرآنى فى مجالاته الواسعة ، التى تحقق أغراضه من ترغيب أو ترهيب ، وعدٍ أو وعيد ، أو غير ذلك مما يشير إليه السياق ويتطلبه؛ فغايات التكرار فى القرآن العظيم متنوعة بحسب ما يقتضيه المقام "فتكرير المدح وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات [له أغراضه فى مواضعه من السياق كما أن] تكرير الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيباً من عقابها. وتكرير القران بين الوعد والوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء فلا يقنطوا من رحمة الله وأفضاله، ولا يغتروا بحلمه وإمهاله. وتكرير الأحكام يدل على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات ، وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء بالإيضاح والبيان.

---

(١) سورة الأعلى : الآيتان ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٤.

وتكرير تذكير النعم يدل على الاعتناء بشكرها. وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد ، وكلما خف خف التأكيد ، وإن توسط الاهتمام توسط التأكيد".[(١)]

ومن الواضح أن التكرار القرآني الكريم أحد وجوه الإعجاز البلاغي فيه، فإلى جانب ما يحققه من التوكيد ، فإنه يأخذ بيد النفس ليثبت فيها الحق وينفي ما سواه مما لازمها ، عارضا لها ما يكرره من القضايا وعظاً وزجراً ، ترغيباً أو ترهيباً في إطار سياقات متنوعة ، لترى الأمر الواحد في أكثر من إطار ، فيقترن لديها ما تراه في حين ومشهد وسياق بعينه بما رأته في إطار آخر من المشاهد وأنماط السياق ، فيكون في كل مرة باعثا لها على إدراك شأنه ، وإعادة تذكره، وبث المزيد من الرغبة فيه أو الرغبة عنه.

ولقد وضح صاحب "البرهان" بعض وجوه الإعجاز البلاغي في ذلك فقال: "وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ، ظنا أنه لا فائدة له ، وليس كذلك، بل هو من محاسنها ، لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض ، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه ، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيداً ، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه ، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء ، وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة. وعلى ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد لأن الإنسان مجبول على الطبائع المختلفة ، وكأنها داعية إلى الشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع[(٢)].

الاستهلال بقوله تعالى: ((قد أفلح المؤمنون)) وما اقترن به من تعدد الصفات ودلالتها:

ومما يظهر في القرآن الكريم متخذا مكان الصدارة في ذكر

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام : ٢٧٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن : الزركشي : ٢ : ٨ ، ٩ . بيروت – لبنان ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢م.

الصلاة وما يتعلق بالمصلين من صفات الخشوع ، وما ينشأ عنها من وجوه ، ما ورد من ذكرهم الجامع فى سورة "المؤمنون" مصدّراً بالجملة الخبرية المؤكدة بـ "قد" والفعل الماضى "أفلح" وإسناده إلى اسم الفاعل المشتق من الفعل آمن على صيغة جمع المذكر السالم "المؤمنون" ليمثل ذلك فى موضعه بصدر السورة مركزا دلاليا جامعا لكل ما تلاه من وجوه التفصيل ذات الصفات المتعددة على هذا النحو الذى قال فيه الله تعالى:(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). (١)

والاستهلال بهذه الآيات المتضمنة هذا الثناء على المؤمنين فى إطار الوصف المتعدد ، وتصديره بقوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) ثم ختمه بقوله تعالى: (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ...) الآية ، له دلالاته البالغة على تعظيم شأن الصلاة.

فمن المعلوم أن "قد" تدخل على الفعل الماضى فتفيد تحقيق حدوث دلالته ، كما تدخل على "المضارع بشرط تجرده عن الجازم والناصب وحرف التنفيس. وتأتى لخمس معان : التوقع ، والتقريب ، والتقليل ، والتكثير ، والتحقيق "(٢).

وللاستهلال بها دلالته على كونها "جواباً لمتوقع"(٣) ، ومعنى ذلك أن هذه الدلالة تتجاوز ما تدل عليه جملة "قد أفلح المؤمنون" من معنى تقرير الجزاء الكائن للمؤمنين بالإخبار عنه ، إلى العناية بشأنهم

---

(١) سورة "المؤمنون" : الآيات : ١ : ١١.
(٢)، (٣) البرهان فى علوم القرآن : الزركشى : ٣ : ٣٠٥. تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . مكتبة دار التراث.

على نحو خاص ؛ فلقد "توقعوا علم حالهم عند الله تعالى"[١] ، فجاءت الآية مؤكدة ثبوت ذلك التوقع "على أبلغ وجه بأن أدخل [سبحانه] قد على المضارع البارز فى صورة الماضى الدال على التحقيق ، فكأنه قال : قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح بالأمانى. ويجوز أن يكون جواب قسم محذوف فيزداد تأكيداً على تأكيده".[٢]

وبعد أن تم هذا التأكيد ، أخذت الآيات فى تعديد صفات المؤمنين الذين استحقوا ذلك الجزاء ، فى تتال منظوم على نحو خاص ، عناصره تبدأ بالمنطلق لتنتقل إلى ما يلازمه ويتفرع عنه تحقيقا لمعناه.

فلفظ "المؤمنون" بيَّن ثبوت اعتقادهم ، وتلاه الوصف "خاشعون" ليكنى عن صفة الإخلاص الكامنة فى قلوبهم والتى من أجلها استحقوا الفلاح المتقدم ذكره ، واجتماع ذكر الإيمان والخشوع فى هذا الترتيب دل على مدى تمكن ذلك الإيمان وتحققه فى جميع خصالهم التى ورد ذكرها بعدهما ، ولا تخفى دلالة التعبير عنهما بالاسم الدال على ثبوت الوصف ودوامه فيهم. وكذلك الحال فى قوله تعالى: (معرضون – فاعلون – حافظون) وما تلاها من الوصف بالاسم.

الفصل والوصل ودلالاتهما فى هذا السياق :

ولقد اقتضت العلاقة الاستئنافية بين قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) وما تلاها فى قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) هذا الفصل ذا الدلالة الواضحة على ما نشأ عن الجملة الأولى من تشويق لمعرفة هؤلاء المفلحين واستفسار عن صفاتهم وأفعالهم التى وردت مفصلة فى هذا السياق المتتالى العناصر.

أما الوصل بين الآيتين : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) فلا تخفى دلالته على كونهما مظهرين متتامين لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالثانى متمم للأول دون شك.

---

(١) نفسه .

(٢) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى بن عثمان : ٣ : ١٠٢.

كما اقتضى التغاير مع وجود المناسبة ، الجمع بين ما ذكر وبين إيتاء الزكاة بواو الوصل ، مما يتردد فى الكثير من المواضع إيضاحاً لشأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكونهما ركنين لهما شأنهما بين العبادات البدنية والمالية.

وكذلك الحال فى الوصل بالواو أيضا بين ذلك وما تضمنه هذا السياق من وجوه متتالية ومتنوعة لصفات المؤمنين بيانا لتغايرها وما بينها من التناسب، وبيانا كذلك لما لكل منها من شأن متفرد.

إعادة ذكر الصلاة قبل إعادة ذكر الجزاء وتنوع الوصف فى ذلك :

أما اقتران ذكر الصلاة "بالخشوع" أولا فى صيغة اسم الفاعل "خاشعون" مع إفراد اللفظ الدال على ذات الصلاة ، ثم "بالمحافظة" ثانيا فى صيغة المضارع "يحافظون" مع جمع لفظها الدال على العدد وما ينبغى لها من الاستمرار والتجدد فقد وضّحا شأن الخشوع الذى هو عمل القلب ، وهذه المحافظة التى هى عمل الجوارح فى صدورها عن ذلك الخشوع ، "وقدم الخشوع لأنه الأصل فى العبادات"(١) فهو يشمل "خشية القلب وإلباد البصر وهو إلزامه موضع السجود".(٢)

وقد وردا "اسمين" فأشارا إلى ثبوت الوصف ودوامه فى الموصوفين ، كما قدم متعلقهما عليهما "لبيان شرف الصلاة" (٣) وصاحبها فى تلك الحال.

وقد اتخذ ذكر الصلاة على هذا النحو فى الموضعين مركزه الدلالى من هذا السياق ؛ فهو ليس "بتكرير [لأنهم] وصفوا أولا بالخشوع فى صلاتهم ، وآخراً بالمحافظة عليها ، وذلك أن لا يسهوا عنها ، ويؤدوها فى أوقاتها ، ويقيموا أركانها ويوكلوا أنفسهم بالاهتمام بها ، وبما ينبغى أن تتم به أوصافها... [ولقد] وُحّدت أولا ليُفاد الخشوع فى جنس الصلاة ، أى صلاة كانت ، وجُمعت آخرا لتفاد المحافظة على أعدادها".(٤)

---

(١) نفسه .
(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٢٥.
(٣) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : الزملكانى : ٩ : ٢٠٥.
(٤) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٢٥ ، ٢٧.

كما دل ورود ذكر الصلاة بعد الجزء الذى استهلت به الآيات مباشرة، ثم وروده قبل إعادة ذكر هذا الجزء بما يبين نوعه مباشرة كذلك فى مختتم تلك الصفات المتعددة على تميز شأن الصلاة ، وكونها جامعة لكل وجوه الفضل وحُسن الوصف بما ذكر إذا تحققت فيها صفة الخشوع المبنية على الإيمان نظرا لما يتفرع عن ذلك من أعمال وصفات.

من الأغراض البلاغية للتعريف والتنكير فى هذه الآيات :

واتخذ التعريف والتنكير فى الآيات دلالاته البلاغية من خلال أوضاعه السياقية هنا ، فلفظ "المؤمنون" المسند إليه فى قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) قام التعريف ببيان شأنه وأنه لتميزه واختصاصه بالتفرد لا سبيل إلى إنكاره، لكونه مشتملا على وصف لمخصوصين معينين إلماحاً إلى التعريض بسواهم من الخاسرين.

وكذلك التعريف بالاسم الموصول المكرر مع كل وصف على حدة فى تعلقه بصلة مختصة بوصف معين ، ففضلاً عما يشير إليه ذلك التعريف من تعظيم الشأن كذلك ، وإبراز الثناء عليهم ودرجة قربهم من الله تعالى ، فإن ذلك يؤذن "بأن كل خصلة هى فى صلتها مستبدة بالمرام فى المدح"[(١)] ،ومستحقة للظهور تنبيها على وجوب التزام المصلين الخاشعين بها. وكذلك الحال فى التعريف بالضمير الذى احتل مكاناً بارزاً فى كل موضع ورد فيه ، فلا يخفى ما يتضمنه من الإشارة إلى بيان الشأن والعناية بالذكر المتتابع المرتبط بمقام الثناء والحث فى آن واحد معاً ، وفى تصدير الصلة به ما يؤذن "بتحقيق حصول الصفة لهم"[(٢)].

أما التعريف بالإضافة فهو يشير فى كل موضع هنا إلى رعاية هؤلاء الموصوفين حق ما يتعلق به من أمور ، ويقظتهم وخوفهم أن يفوتهم شيء منها فيعتريهم التقصير فيما يلزمهم رعايته .

---

(١) (٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : الزملكانى ٩ : ٢٠٥.

يقول الزمخشرى موضحاً ذلك التعريف بالإضافة إلى الضمير فى لفظ الصلاة ، فإن قلت : "لم أضيفت الصلاة إليهم؟ قلت : لأن الصلاة دائرة بين المصلّى والمصلّى له ، فالمصلى هو المنتفع بها وحده ، وهى عدته وذخيرته فهى صلاته ، أما المصلّى له فغنىّ متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها..." (١).

وظهر هنا من أنواع المعارف اسم الإشارة "أولئك" متخذا مكانه من تحقيق معانى السمو وبُعد المنزلة وشرفها فى المشار إليهم الذين تردد ذكرهم وتتالت نعوتهم فى هذه الآيات ، واجتمعت لدى ذلك التقرير المؤكد بأنهم "قد" أفلحوا ؛ ففى قوله تعالى عقب تلك النعوت المتعددة: "أولئك هم الوارثون" "أتى بـ" أولئك" لبيان أنهم مستحقون بحكم خبره بالصفات السابقة ، وعرّف خبره لبيان أنهم الأحقاء الخلفاء بذلك الحكم"(٢) ، فورود الحكم المذكور فى هذه الجملة الخبرية بعد ذكر الصفات التى اقتضته ، لاءمه بيان استحقاق الموصوفين به لكونه مترتباً عليها وناشئا عنها.

وقد ناسب تعظيم الشأن بالتعريف دخول كل من يتصف بهذه الصفات فى إطاره بطريق التنكير الدال على العموم كما هو الحال فى الألفاظ: "خاشعون ، معرضون ، فاعلون ، حافظون" وغيرها.

بيان وجه الجزاء المذكور بشرحه فى قوله تعالى : (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ...) وما يتضمنه من الحث والترغيب :

ويستدعى التوقف فى ذلك ، تعظيم شأن الجزاء فى هذا السياق ؛ فبعد النص عليه فى مستهل الآيات مؤكدا فى قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) ، ورد بيان لنوع هذا الجزاء واستحقاق المذكورين إياه فى قوله تعالى : (أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) ، ثم استؤنف الكلام بيانا لشأن اسم الفاعل "الوارثون" لما يتطلبه من شرح معنى الوارثة فيه فورد قوله تعالى: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) مما اقتضى ترك

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٢٥.
(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : الزملكانى : ٩ : ٢٠٥.

العطف.

ولقد قام ذلك على تعريف "الفردوس" بالعلمية ، وإيراد المضارع "يرثون" للدلالة على الاستمرار والتجدد بعد إفادة الثبوت والدوام في قوله تعالى "الوارثون"، فضلا عما سلف بيانه من استخدام اسم الإشارة "أولئك" والضمير "هم" والموصول "الذين".

ويتضح فى ذلك كله دور الحث والترغيب وتأكيدهما على نحو ظاهر ، يلتقى فيه بدء الوصف وانتهائه ، وتتتالى بينهما صفات الثناء ، وتتعدد مظاهر إعلاء الشأن وبيان الحال وصفة الجزاء .

ولقد أورد صاحب "الإشارة إلى الإيجاز" بيانا لذلك تحت عنوان "فصل فى مدح الفاعل بفعله حثا عليه" فقال : "وذلك فى قوله سبحانه : (قَدْ أفلحَ المُؤْمِنُونَ) وما عطف عليه من أفعالهم إلى قوله (أولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ) حثهم بمدحه إياهم أولا، وبما رتب عليه من إرث الفردوس آخرا "[1].

تنوع الأساليب الوصفية المتعلقة ببيان شأن الصلاة في السياق القرآني العام وما تحققه من الأغراض :

اقترن وصف الصلاة والمصلين فى السياق القرآن العام بالفلاح - كما سلف بيانه - وكما هو الحال فى مواضع أخرى متعددة ، وبالتقوى ، وبالعبودية الخالصة لله تعالى وبذكر الإيمان وأسسه ومظاهره ، وجميعها جوانب تحمل دلالات جامعة لأسس العقيدة ومنطلقاتها وآثارها فى أصحابها.

وورد الأسلوب فى كل حال مختصاً بصفات محددة ومنطلقاً من أسس توضح قدر هذه الصفات وقوتها.

■ ففى سورة البقرة[2] يرد ذكر الصلاة فى إطار ذكر الإيمان

---

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز : عز الدين عبد العزيز عبدالسلام : ٢٦١.

(٢) سورة البقرة : الآيات ١ : ٥ .

الكامل بالقرآن الكريم وما يتضمنه من الهدى ويتعلق به من إيمان بما أنزل إلى رسول الله محمد ﷺ وما أنزل من قبله ، وإيمان باليوم الآخر ، ويرد وصف المصلين في هذا الإطار مبرزاً الجانب العملي لإيمانهم حيث يرد معطوفاً على كونهم "يؤمنون بالغيب" ويعطف عليه كونهم "ينفقون" مما رزقهم الله.

يرد ذلك في سياق ملائم قوة ما عبر عنه من أصول الإيمان وكماله ، فيبدأ قبل ذكر هؤلاء الموصوفين بإطلاق صفة التقوى عليهم ، ويختتم بالحكم بفلاحهم، كما يرافق هذا الاستهلال وهذا الانتهاء ذكر الهدى حيث قال تعالى مستهلا السورة: "ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين" ثم جمع وصفهم في تتال موصول بالواو بيانا لما فيه من التغاير ، وأن لكل من الجوانب شأنه المتميز فقال تعالى : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) ، ثم أعاد ذكر الهدى مقترناً بوصفهم بالفلاح وتعظيم شأنهم بالإشارة المكررة بالاسم الدال على البعد والسمو "أولئك" فقال تعالى : (أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

■ وفي سورة الفرقان يرد ذكر الصلاة مبيناً صفات "عباد الرحمن" ومنطلقا منها، على نحو خاص يتعلق بسياق السورة في عمومها مبرزاً شأن هذه الطائفة من العباد الذين استجابوا لله تعالى فتحققت صفات العبودية فيهم قولاً وعملاً ، ومن بينها كونهم : "يبيتون لربهم سجدا وقياماً"(١).

بينما وقف غيرهم ممن ذكر في هذا السياق معرضاً مجادلا بالباطل على هذا النحو الذي وضحه سبحانه بقوله : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)(٢).

وهي مقابلة متعددة الوجوه ، ممتدة في كثير من جوانب هذا

---

(١) سورة الفرقان : من الآية ٦٤ .
(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٠ .

السياق الكريم، المشتمل على صفات عباد الرحمن التى تقابل صفات غيرهم ، ليكون فى ذكرها تعريض بهم وثناء على هؤلاء ، فهم يتصفون بخشية الله تعالى فيبيتون (لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) ، وتظهر هذه الخشية فى أقوالهم وأعمالهم ، كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا).

وصفاتهم العديدة التى عطف بعضها على بعض تنطلق من أسس إيمانية ثابتة ، فهم (لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) [1]، وهم أيضا الذين (إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)[2].

وصفاتهم المتتالية فى عمومها ، وما تنطلق منه من هذه الأسس الثابتة، تمثل مقابلات عامة لما تضمنته السورة من صفات المعرضين وجدالهم ؛ فقد قال تعالى فى شأنهم : (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[3]، ووصفوا القرآن الكريم بأنه (إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ)[4] ، (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ...)[5] ، وسخروا من الرسول ﷺ وكذبوا بالساعة ، فوصفت السورة ما يلقونه من العذاب الواقع وصفاً واضحاً ، مقابل ما يلقاه المتقون من التكريم والنعيم.

ولقد بدا ذكر السجود والقيام فى إطار زمنى يكنى به عن سمو شأنه وعظيم قدره فهم : "يبيتون" مصلين ليلا ، مخلصين ومتجهين بنياتهم "لربهم" وحده "سجدا" خاشعين متواضعين "وقياماً" ، ذلك أنهم : "عباد الرحمن".

وفى ذلك ما فيه من تعظيم شأن الصلاة ، وتكريم المصلين والثناء عليهم مقابل نقيضهم فى الفريق الآخر الذين إذا (قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) كما سلفت الإشارة.

---

(١) سورة الفرقان : من الآية ٦٨.
(٢) سورة الفرقان : من الآية ٧٣.
(٣) سورة الفرقان : من الآية ٣ .
(٤) سورة الفرقان : من الآية ٤.
(٥) سورة الفرقان : من الآية ٥.

الكامل بالقرآن الكريم وما يتضمنه من الهدى ويتعلق به من إيمان بما أنزل إلى رسول الله محمد ﷺ وما أنزل من قبله ، وإيمان باليوم الآخر ، ويرد وصف المصلين في هذا الإطار مبرزاً الجانب العملي لإيمانهم حيث يرد معطوفاً على كونهم "يؤمنون بالغيب" ويعطف عليه كونهم "ينفقون" مما رزقهم الله.

يرد ذلك في سياق ملائم قوة ما عبر عنه من أصول الإيمان وكماله ، فيبدأ قبل ذكر هؤلاء الموصوفين بإطلاق صفة التقوى عليهم ، ويختتم بالحكم بفلاحهم، كما يرافق هذا الاستهلال وهذا الانتهاء ذكر الهدى حيث قال تعالى مستهلا السورة: "ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين" ثم جمع وصفهم في تتال موصول بالواو بيانا لما فيه من التغاير ، وأن لكل من الجوانب شأنه المتميز فقال تعالى : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) ، ثم أعاد ذكر الهدى مقترناً بوصفهم بالفلاح وتعظيم شأنهم بالإشارة المكررة بالاسم الدال على البعد والسمو "أولئك" فقال تعالى : (أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

■ وفي سورة الفرقان يرد ذكر الصلاة مبيناً صفات "عباد الرحمن" ومنطلقا منها، على نحو خاص يتعلق بسياق السورة في عمومها مبرزاً شأن هذه الطائفة من العباد الذين استجابوا لله تعالى فتحققت صفات العبودية فيهم قولاً وعملاً ، ومن بينها كونهم : "يبيتون لربهم سجدا وقياماً"(١).

بينما وقف غيرهم ممن ذكر في هذا السياق معرضاً مجادلا بالباطل على هذا النحو الذي وضحه سبحانه بقوله : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)(٢).

وهي مقابلة متعددة الوجوه ، ممتدة في كثير من جوانب هذا

---

(١) سورة الفرقان : من الآية ٦٤ .
(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٠ .

السياق الكريم، المشتمل على صفات عباد الرحمن التى تقابل صفات غيرهم ، ليكون فى ذكرها تعريض بهم وثناء على هؤلاء ، فهم يتصفون بخشية الله تعالى فيبيتون (لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) ، وتظهر هذه الخشية فى أقوالهم وأعمالهم ، كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا).

وصفاتهم العديدة التى عطف بعضها على بعض تنطلق من أسس إيمانية ثابتة ، فهم (لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) [١]، وهم أيضا الذين (إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)[٢].

وصفاتهم المتتالية فى عمومها ، وما تنطلق منه من هذه الأسس الثابتة، تمثل مقابلات عامة لما تضمنته السورة من صفات المعرضين وجدالهم ؛ فقد قال تعالى فى شأنهم : (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٣]، ووصفوا القرآن الكريم بأنه (إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ)[٤] ، (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ...)[٥] ، وسخروا من الرسول ﷺ وكذبوا بالساعة ، فوصفت السورة ما يلقونه من العذاب الواقع وصفاً واضحاً ، مقابل ما يلقاه المتقون من التكريم والنعيم.

ولقد بدا ذكر السجود والقيام فى إطار زمنى يكنى به عن سمو شأنه وعظيم قدره فهم : "يبيتون" مصلين ليلا ، مخلصين ومتجهين بنياتهم "لربهم" وحده "سجدا" خاشعين متواضعين "وقياماً" ، ذلك أنهم : "عباد الرحمن" .

وفى ذلك ما فيه من تعظيم شأن الصلاة ، وتكريم المصلين والثناء عليهم مقابل نقيضهم فى الفريق الآخر الذين إذا (قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) كما سلفت الإشارة.

---

(١) سورة الفرقان : من الآية ٦٨.
(٢) سورة الفرقان : من الآية ٧٣.
(٣) سورة الفرقان : من الآية ٣ .
(٤) سورة الفرقان : من الآية ٤.
(٥) سورة الفرقان : من الآية ٥.

■ وهو يقابل بدوره ما ورد فى سورة السجدة من قوله تعالى: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) (١) ، وهؤلاء أنفسهم هم المذكورون هنا بقوله تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) (٢) .

■ أما فى سورة الأعلى فنجد الاستهلال بالتسبيح أمرا ظاهرا مذكرا بأعمال الصلاة من السجود وما يشتمل عليه من الذكر فى قوله تعالى : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) ، ليرد فى هذا السياق ذكر الصلاة متصلا ببيان أثرها فى نفوس المصلين وعواقبهم تطهيرا وأجرا فى قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)(٣).

وبالرغم من الاقتصار على ذكر أثر الصلاة فى المصلى بقوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) والإشارة السابقة قبل ذلك بقوله تعالى : (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى) ، إلا أنه إيجاز جامع يتضمن الإشارة إلى جميع أعمال المتقين وأسسها التى سردت فى سياقات أخرى ؛ فالتزكيه إعمال النفس "فى تطهيرها من فاسد الاعتقادات والأخلاق والأقوال والأفعال والأموال ، وتنمية أعمالها القلبية والقالبية وصدقة أموالها"(٤) .

فما فصل ذكره فى غير ذلك من صفات المصلين ، أجمل بهذا الوصف الجامع والإيجاز الدال هنا ، "ولما كان أعظم الأعمال المزكية الذكر والصلاة قال تعالى : "وذكر" أى بالقلب واللسان اسم ربه أى صفات المحسن إليه ، فإنه إذا ذكر الصفة سُرّبها فأفاض باطنه على ظاهره ذكر اللفظ الدال عليها ، ... "فصلى" أى الصلاة الشرعية لأنها أعظم الذكر فهى أعظم عبادات البدن" (٥) .

ولقد اتخذ ذكر الصلاة وأثرها فى ذلك إطارا من المعالجة المتصلة بمصدره من التفكر فى آلاء الله (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٥.
(٢) سورة الفرقان : من الآية ٧٣.
(٣) سورة الأعلى : الآيتان ١٤ ، ١٥ .
(٤) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : برهان الدين البقاعى : ٢١ : ٤٠٣.
(٥) نفسه.

فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى)[1] ، وكما اتصلت مظاهر القدرة المذكورة هنا بالتسبيح المذكور قبلها ، ترتب عليها ما ورد بعدها من قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى)[2] إثباتا لدلالة دوام الذكر ، وكما اقترنت عاقبة من يتذكر فيخشى الله بالفلاح، قابلها وأظهر دلالتها نقيضه الذى قال تعالى فى شأنه : (ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى) .

أما أسباب التذكر أو الإعراض وما يتعلقان به فقد جمعت فى نهاية السورة على هذا النحو ، فقال تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى)[3].

■ أما فى سورة المعارج التى سبق بيان ما ورد فيها من صفات المصلين ووصفهم بالمحافظة والمداومة على الصلاة ، فقد ورد ذكر الصلاة فيها على نحو آخر يتصل بالاستثناء المشير إلى تميز المصلين وسمو شأنهم ، وشأن صفاتهم التى تتدرج متتابعة تحت هذا الوصف بلفظ "المصلين" .

فالسورة تستهل بذكر العذاب الواقع الذى ليس له دافع ، وتصور هول القيامة، وما يطرأ على السماء والجبال والخلائق عامة من مظاهر الهول وآثاره ، وتصور جهنم وشأنها إذ (تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى)[4]، ثم تذكر الإنسان وكونه (خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا)[5]، ثم تتبع ذلك باستثناء المصلين ، وتتبع ذكرهم بالوصف المفصل الذى سلف بيانه على نحو يتضح فيه شأن الصلاة والمداومة والمحافظة عليها وما يرافق ذلك من صفات أصحابها وجزائهم فى سياق مذكر بما ورد فى سورة "المؤمنون" ، غير أنه صادر عن هذا المنطلق الجامع فى قوله تعالى : (إلا المصلين) بينما

---

(١) سورة الأعلى : الآيات من ١ : ٥ .
(٢) سورة الأعلى : الآية ٦ .
(٣) سورة الأعلى : الآيتان ١٦ ، ١٧.
(٤) سورة المعارج : الآيتان ١٧ ، ١٨ .
(٥) سورة المعارج : الآيات ١٩ ، ٢١.

صدر فى سورة "المؤمنون" بعد الاستهلال بالخبر المؤكد بـ "قد" فى قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ).

الإشارة إلى شأن المصلين بالوصف الجامع الدال :

ولقد عنى السياق القرآنى الكريم بالوقوف لدى ألفاظ جامعة للكثير من وجوه الوصف الدال ، ارتباطا بحال الثناء والحث ، وبياناً لشأن الصلاة إذا أقيمت على نحو خاص متعلق بذلك الوصف ، وبياناً – كذلك – لشأن المصلين الذين يقيمونها على النحو المذكور.

من هذه الألفاظ الجامعة "المخبتين" و "المحسنين" و "القانتين" أو ما يدور حول مادتها اللغوية من المشتقات.

والملاحظ هنا أن ورود أحد هذه الألفاظ فى سياقه يتميز بتعلقه بما ورد فى إطاره من صفات لها دورها فى بيان شأن الصلاة على نحو خاص يؤكد ذلك الوصف المعنوى ويربطه بجانبه العملى.

لفظ ((المخبتين)) ودلالته فى سياقه :

فمما ورد فيه لفظ "المخبتين" وما يتعلق به من صفات ، قوله تعالى فى سورة الحج : (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) (١).

وبيان ذلك أن معنى "المخبتين" متصل بصفات معنوية قلبية وخلقية ؛ فهم (المطمئنون أو المتواضعون ... ، وهم الراضون بقضاء الله (٢)" أو هم "المطيعون المخلصون ، فالإخبات صفتهم من الخبت وهو المكان المطمئن" (٣).

فجاء ذلك اللفظ مجمِلاً ما ذكر بعده من وجوه الأعمال المتصلة كذلك بجوانب قلبية وخلقية ، تتحقق بوجودها معانى إقامة الصلاة على

---

(١) سورة الحج : من الآية ٣٤ ، والآية ٣٥.

(٢) روح المعانى : الألوسى : ١٧ : ١٤٠.

(٣) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى بن عثمان : ٣ : ٩١ .

هذا النحو المميز؛ فجاء الوصف المذكور بعد "المخبتين" فى صورة البيان الاستئنافى فترك الوصل بالواو ، فقال تعالى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) ، فالتقى معنى الإخبات بمعنى الوجل ، وورد الوصف للقلوب بالوجل فى صورة الكناية الدالة على ما يكمن فى هذه القلوب من يقين إيمانى استدعاه ، وجاء الشرط "إذا" دالا على سرعة التأثر بالذكر بمجرد حصوله ، فاقترن الشرط " ذُكِرَ اللَّهُ " بالجواب " وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ " بيانا لسرعة حصول الخوف والهيبة والإجلال التى يتضمنها معنى الوجل فى هذه القلوب.

وكذلك تعلق معنى الإخبات بما عطف على وجل القلوب وبنى عليه من "الصبر" على ما أصابهم" مما يتطلب قوة قلبية كامنة فى النفس لا تتواجد إلا فيما اتصف بالوجل وتعلق بمعنى الإخبات المذكورين فى إطارها.

وبعد ثبوت هذا الوصف وإحكام بنائه فى تعلق بعضه ببعض على هذا النحو ، ورد ذكر إقامة الصلاة وما يرافقها من إيتاء الزكاة ، تمييزا لشأن الصلاة الصادرة عن ذلك الوصف المتمكن فى قلوب أصحابها ، وبياناً لتفردها بسمو متصل به.

وكل ذلك ورد مرتبطا بما انطلق منه عند قوله تعالى : (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا) من الإخبار بوحدانية الله تعالى والأمر بالإسلام ، مما يمثل قاعدة العقيدة ومصدرها الذى يتحقق فى القلوب ، فتجد مجالها لهذه الصفات القلبية والخلقية والعملية المذكورة.

لفظ ((المحسنين)) ودلالته فى سياقه :

ومما ورد فيه لفظ "المحسنين" ، وما يتعلق به من صفات كذلك ، قوله تعالى فى سورة "الذاريات" : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ

وَالْمَحْرُومِ) (١).

ومن المعروف أن لفظ الإحسان متصل بالإخلاص المقترن بالإتقان على أحسن وجه ، وحين يرد فى مجال العبادة لا يلبث أن يقترن بما اشتهر من بيان النبى ﷺ لمعناه بأنه "أن تعبد الله كأنك تراه" مما يشير إلى بلوغ الاجتهاد فى الإحسان مبلغه صدورا عن الإخلاص والحذر من التقصير فى كل حال.

وهذه الدلالة فى عمومها متعلقة بما وضحها من الصفات الواردة فى سياقها تعلق الاستئناف المبين حال المشار إليهم بعلو الشأن وبأنهم متقون منعمون (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) فهذا التكريم ذو الشأن اقتضى استفساراً ذهنياً عمن استحقوه ، وبم كان هذا الاستحقاق ، فورد قوله تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ) وترك الوصل بينهما ، ثم ترك أيضا فيما تلاه من بيان استئنافى مبنى عليه ناشىء عن إيضاح معنى ما اتصفوا به من الإحسان ، وكأنه قيل : وماذا كانوا يفعلون ، فقال تعالى : (كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ).

فاتخذ معنى كونهم "محسنين" طريقه إلى بيان أشد صور الإحسان ، بأسلوب الكناية المؤكدة ؛ فطول الأوقات التى شملتها العبادة قياماً وذكراً لله تعالى، كنى عنها بقلة الهجوع "وقوله – تعالى – قليلا ومن الليل لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة ما [للتأكيد] لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم ، وقوله تعالى (هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) فيه : أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرّين ، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم وإطنابهم فيه"(٢) مما أفاده تقدم الضمير على مسنده الفعلى.

فاجتماع هذه العناصر الدالة على إحسانهم فى تهجدهم دل على معنى الإحسان وتعلق به على هذا النحو ؛ فاختيار "الليل" ظرفا لذلك ،

---

(١) سورة الذاريات : الآيات ١٥ : ١٩ .

(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٥.

وزيادة "ما" قبل "يهجعون" ، وتقدم "هم" على "يستغفرون" فضلا عن اجتماع دلالتى التهجد والاستغفار ليلا وسحرا على النحو المذكور ، وفضلاً كذلك عن استعمال الفعل المضارع لإفادة التجدد والاستمرار فى "يهجعون" ثم "يستغفرون" ، واستعمال اسم الفاعل للدلالة على ثبوت الوصف ودوامه فيهم ، كل ذلك مجتمعاً حقق دلالة لفظ الإحسان وناسب حال الإخلاص فى العبادة متصلاً ببرهانه.

وإذا كان معنى الإحسان جامعا للإحسان فى جميع وجوه الخير ، فإن اختصاص الصلاة والاستغفار - كما هو الحال هنا - ببيانه دون غيرهما من الأعمال بيان لفضلهما ، وإشعار بأن من يتصف بذلك جامع لغيرهما من وجوه الإحسان.

ومن هنا ورد لفظ "المحسنين" أيضا مقترنا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان اليقينى بالآخرة وما يرافق ذلك من صفات الهداية والفلاح ، مما نجده فى سورة لقمان ، فى قول الله تعالى : (الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١).

لفظ ((القنوت)) ودلالته فى سياقه :

ومما ورد فيه لفظ القنوت متعلقاً بما يدل عليه ويؤكد وضوحه فى القانتين من حذر ورجاء حال صلاتهم آناء الليل سجوداً وقياماً ، قول الله تعالى فى سورة الزمر : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) (٢).

ولما كان "القنوت" "مطلق العبادة فلم يكن مغايراً للسجود والقيام فلم يعطفا عليه ، بخلاف السجود والقيام فإنهما وصفان متغايران فلذا عطف أحدهما على الآخر ، وتقديم السجود على القيام ، لكونه أدخل فى

(١) سورة لقمان : الآيات ١ : ٥ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٩ .

معنى العبادة ،وذهب [الأكثرون] إلى أنه أفضل من القيام لحديث : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)"[١].

أما بيان حال هؤلاء القانتين آناء الليل سجوداً وقياما فقد اقتضى بيانا لشأنه، بجملتين متصلتين بالواو "يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه" مما اقتضى بدوره ترك العطف بينهما وبين ما سبقهما من حال وردتا استئنافاً ناشئاً عنه "فكأنه قيل : ما باله يفعل ذلك ؟ فقيل : يحذر الآخرة أى عذاب الآخرة "[٢] "ويرجو رحمة ربه".

واقترن ذكر القنوت بمعانى الاصطفاء والتطهير المطلق وبنداء الملائكة لمريم عليها السلام ، وبالأمر فى ذلك بالركوع والسجود ، فاتخذ القنوت فى ذلك إشارة جامعة لسمو الشأن إلى مدى بعيد.

ولقد لاءم "القنوت" خاصة هذا المقام لما ينطوى عليه معناه من "إطالة القيام فى الصلاة – قاله مجاهد – أو إدامة الطاعة – قاله قتادة – وإليه ذهب الراغب، أو الإخلاص فى العبادة – قاله سعيد بن جبير – أو أصل القيام فى الصلاة – قاله بعضهم"[٣].

فقد قال الله تعالى فى سورة آل عمران : (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)[٤].

فبعد النداء والتبشير بالاصطفاء والتطهير على هذا النحو ، أعيد النداء لشأن آخر هيأ له سابقه ، وهيأ هو للأمر بالقنوت لله أولا ثم الأمر بالسجود ثم الأمر بالركوع مع الراكعين.

فالقنوت هنا وارد فى إطار غير مألوف ، عناصره قائمة على النداء الصادر عن الملائكة ، والمنادى مريم عليها السلام ، والتبشير ينص على خبر من عند الله تعالى فهو الذى اصطفى وطهر على هذا

---

(١) (٣) روح المعانى : الألوسى : ٢٣ : ٢٣٦.

(٣) السابق : ٣ : ١٥١ .
(٤) سورة آل عمران : الآيتان ٤٢ ، ٤٣.

النحو المتميز ، وهى عناصر ممهدة لما يُنبنى عليها من أمور واجبة ، وهنا ورد أسلوب الأمر "اقنتى" و"اسجدى" "واركعى" .

وورد الفعل "اقنتى" أولاً بعد النداء الثانى ، فهو منطلق ملائم للوصف بذلك الاصطفاء وتلك الطهارة ، و "الظاهر أنه من مقول الملائكة أيضا وصَّوْها بالمحافظة على الصلاة بعد أن أخبروها بعلو درجتها وكمال قربها إلى الله تعالى لئلا تفتر ولا تغفل عن العبادة ، وتكرير النداء للإشارة إلى الاعتناء بما يرد بعد، كأنه هو المقصود بالذات وما قبله تميهد له"(١) .

ثم جاء الأمر بالسجود وتلاه الأمر بالركوع و "يحتمل أن يكون المراد من ذلك كله الأمر بالصلاة إلا أنه أمر سبحانه بها بذكر أركانها مبالغة فى إيجاب المحافظة عليها ، لما أن فى ذكر الشيء تفصيلاً تقريراً ليس فى الإجمال ، .. [وقيل فى سر تقديم السجود على الركوع] : لأنه أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ..." (٢) .

وقيل إن فى قوله تعالى : "واركعى مع الراكعين" "الإرشاد إلى صلاة الجماعة [أو] أن "مع" مجاز عن الموافقة فى الفعل فقط دون اجتماع ، أي افعلى كفعل الراكعين وإن لم توقعى الصلاة معهم ... لأنها كانت تصلى فى محرابها ، وأيضا لأنها كانت شابة وصلاة الشواب فى الجماعة مكروهة" (٣) .

وجميع ذلك له فضله فى بيان شأن المأمور به فى هذا المقام من قنوت وصلاة وركوع وسجود.

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٣ : ١٥٠ .
(٢) السابق : ١٥١ .
(٣) نفسه .

القسم الخامس

يتضمن هذا القسم دراسة أساليب "النداء" مستهلا ببيان أثر هذا الأسلوب فى تحقيق الغاية منه وما ورد فى سياقه من أمر أو نهى أو حث أو غيرها ، وما يتعلق فيه بذلك من ثناء إذا وصف المنادى بوصف معين – أو بيان شأن مخصوص ، متعلق بسياقه ، أو بيان منزلة تقتضى التنبه إلى ما توجبه مما ورد فى إطارها أو غير ذلك.

وتضمن هذا القسم – كذلك – دراسة بلاغية تحليلية لما اشتملت عليه أساليب النداء التى ورد ذكر الصلاة فى إطارها بعد نداء النبى ﷺ أو نسائه –رضوان الله عليهن – أو المؤمنين عامة ، أو النداء فى مقام الوعظ والاستمالة ، أو مقام الدعاء. ويتسع هذا المجال ليتضمن دراسة ما يلى من الجوانب :

- نداء النبى ﷺ وأمره بصلاة الليل ،على نحو خاص تعددت فيه الصيغ اللغوية الدالة على شأن هذه الصلاة ومدى تأثيرها فى النفوس والانقطاع للعبادة.
- نداء نساء النبى ﷺ وأمرهن بالصلاة ودلالته .
- بيان شأن الصلاة فى ضوء نداء المؤمنين عامة ، ويشمل :
- نداء المؤمنين وتشريع الوضوء والتيمم .
- ما يكمن وراء هذا التشريع من دلالات نفسية .
- بيان قدر هذا التشريع وغايته وصلته بتعظيم شأن الصلاة وما يتعلق بها.
- نداء المؤمنين وأمرهم بذكر الله وتسبيحه وعلاقته ببيان شأن الصلاة.
- نداء المؤمنين وأمرهم بالركوع والسجود فى إطار الأمر بالعبادة عامة.

- نداء المؤمنين وأمرهم بالسعى إلى "صلاة الجمعة" وبيان شأن هذه الصلاة.
- الإظهار فى موضع الإضمار وأثره فى بيان شأن الجمعة.
- تعظيم شأن الصلاة فى إطار أسلوب الوعظ والاستمالة .
- إظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فى دعاء ابراهيم عليه السلام.

أسلوب النداء وأثره فى بيان شأن الصلاة :

من المعروف أن للنداء أثره فى تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه مما بعده، وماله من شأن أو خطورة ، فإذا ما ورد بعده أمر أو نهى كان ذلك مجتمعاً تأكيداً لمعنى الإلزام بالفعل فى الأمر ، أو الإلزام بالترك فى النهى.

وورود النداء فى القرآن الكريم له شأنه فى بيان قدر الأسلوب الذى ورد فى إطاره.

ويجمل صاحب "الإشارة إلى الإيجاز" مقاصد القرآن فى أنواع محددة ؛ ثم يجعل "النداء" واحدا منها موضحاً أغراضه البلاغية على نحو مجمل كذلك ؛ فيقول: "والنداء تنبيه للمنادى ليسمع ما يلقى إليه بعد النداء من الكلام ليعمل بمقتضاه ، ولذلك كثر النداء فى القرآن الكريم ، وأما وصف المنادى [فأقسام منها]: مالا حث فيه كقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) [ومنها] : ما فيه حث كالوصف بالإيمان ، وله فائدتان : إحداهما الحث على ما يأمر به وينهى عنه بعد النداء، فإن الإيمان موجب للطاعة والإذعان . والفائدة الثانية : إكرام المؤمنين بندائهم بأشرف أوصافهم وأحبها ، فيحثهم ذلك الإكرام على لزوم الطاعة والإذعان" [(١)].

وينبه الزمخشرى إلى فضل تحقيق النداء لغايات الأسلوب إذا ورد مكرراً بما يتضمنه حينئذ من الاستدعاء "لتجديد الاستبصار عند كل خطاب ، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل ، وتحريك [الهمم] لئلا

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز : عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام: ٢٧٣.

يفتروا ويغفلوا عن تأملهم ..." (١).

مجالات النداء والأمر وأثرهما فى بيان شأن الصلاة :

نداء النبى ﷺ وأمره بصلاة الليل :

اقترن أسلوب النداء للنبى ﷺ بالأمر بقيام الليل فى سياق مفصل ، زاخر بالعناصر المبينة شأن هذه الصلاة وما تشتمل عليه من ذكر لله وترتيل للقرآن ، وتبتل وخشوع ، وغيرها من العناصر التى أبرزت فضل هذه الصلاة وشأنها المتميز بوضعها فى إطار زمنى خاص يعين على قوة القصد إليها بعيداً عن كل شاغل.

ولما كان ذلكُ مُصدَّراً بنداء النبى ﷺ خاصة ، وأمره بها فى هذا الإطار الزمنى الخاص فقد اجتمع فى ذلك ما دل على شرف تلك الصلاة وسموها.

قال الله تعالى فى سورة "المزمل" : (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا)(٢).

لقد استهلت السورة بهذا النداء للنبى ﷺ بوصفه وصفاً خاصاً متعلقاً بحال مخصوصة فى قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ " وجاء الأمر مباشرة بعد ذلك بقوله تعالى : " قُمِ اللَّيْلَ " ، ولم يقل : قم صل ولا غير ذلك مما قد يحققه غرض القيام للعبادة ، بل نص على الزمن المقترن بهذا القيام ، وهو "الليل" لما يمثله من إطار زمنى متعلق بشأن القيام الخاص الذى أمره به ، والتزمل الذى نودى بصفته والذى من شأنه أن يكون الليل أيضا زمنا له غالبا.

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٣٨٩.

(٢) سورة المزمل : الآيات ١ : ١٠ .

ولقد وضح الزمخشرى دلالة ذلك فى إيجاز بليغ حيث قال : "أمر ﷺ بأن يختار على الهجود التهجد ، وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة فى الله" (١).

فالأمر بالفعل "قم" بعد النداء ، له دلالاته وغاياته فى تحقيق معنى شأن هذا القيام وما يتضمنه من تهجد ، فالآمر هو الله تعالى ، والمأمور هو نبيه ﷺ ، والمأمور به هو صلاة الليل ، والحال الملابسة لهذا الأمر كانت هى : التماس النبى ﷺ الراحة.

لذا فقد اقترن هذا الأمر بالحكمة المعللة له ، كما اقترن بما يبين وجوهه وكيفيته ، وما يعين على بلوغه مبلغ الكمال المنشود من هذه الصلاة.

فبعد أن أشار إلى زمن هذه الصلاة ، ومقدار هذا الزمن ، فى تحديد مقترن باختيار مقيد به ، وبعد أن بين كيفية ما تشتمل عليه هذه الصلاة من التلاوة فى قوله : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا) ، بين حكمة ذلك فيما تلاه ؛ حيث إن " الليل أعون على المواطأة [وهى موافقة القلب لما ينطق به اللسان] ، وأشد للقراءة لهدوّ الرِّجل وخفوت الصوت، وأنه أجمع للقلب ، وأضم لنشر الهمم من النهار ؛ لأنه وقت تفرّق الهموم ، وتوزّع الخواطر ، والتقلب فى حوائج المعاش والمعاد" (٢).

ويدعو إلى التأمل – هنا – بث هذه الحكمة من خلال بث عناصر العناية بالجوانب البارزة التى تتصل بالقوى النفسية المعينة على صلاة الليل إحساناً وخشوعاً وانقطاعاً لله تعالى عن كل شاغل ، وعلى ما يحققه ذلك من قيام بمهام وتكاليف أخرى تعين عليها وتحققها هذه القوة التى حققتها تلك الصلاة.

فمن العناصر البارزة الدالة على هذه العناية قوله تعالى : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) ، ووصف القرآن بكونه "قولاً ثقيلاً" ، ووصف الاستعانة بصلاة الليل على تحقيق هذه القوة النفسية الموصّلة بالله تعالى

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٧٣ .
(٢) نفسه : ١٧٦ .

فى قوله عز وجل : (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا) ، وتعليل وجوب هذا الخلو بالليل لهذه الصلاة بقوله تعالى : (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا) ، وجمع أطراف المعانى المشتملة على ذكر الله والتفرغ لعبادته على هذا الوجه بقوله تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا).

ثم ختم ذلك بذكر عظمة الله وجلاله وسعة ملكه ، ووجوب الاستعانة به وتوحيده : (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) وبعد أن يتحقق جميع ذلك تبرز الصفة النفسية الجامعة لمعانى المجاهدة المحققة غايات الرسالة فى قوله تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا).

ولقد اتخذت أساليب الأمر الملائمة لهذا السياق وتلك الأغراض مواضعها ، فكثرت على هذا النحو فى قوله تعالى : (قم – انقص – زد – رتل – واذكر – وتبتل – فاتخذه – واصبر – واهجرهم) .

كما كثرت العناصر المؤكدة والمبينة للنوع والوصف كالمفعول المطلق فى: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) ، (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)(1)، (وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) ، وكالتأكيد بإن ، وكالإتباع بالنعت المبين شأن الموصوف وصفته فى قوله تعالى : (قَوْلًا ثَقِيلًا) ، و (سَبْحًا طَوِيلًا) ، و (هَجْرًا جَمِيلًا).

وكالتمييز الكاشف إبهام المعنى بجلاء محدد فى قوله تعالى : (هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا) ثم فى قوله عطفاً على ذلك : "وأقوم قيلا" ، فضلاً عما تدل عليه صيغة اسم التفضيل فى اقترانها بهذا التمييز من الدلالات.

وفى ظل التفصيل والتوقف لدى كل عنصر بهذا البيان ، يتضح تعلقه بالأمر (قُمِ اللَّيْلَ) وما يحققه من فضل الإحسان فى ذلك القيام.

فقوله تعالى (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ) : "أى فى أثناء ما ذكر من القيام أي اقرأه على تؤدة وتمهُّل وتبيين حروفٍ "ترتيلا" بليغاً بحيث يتمكن

---

(1) وفيه "احتباك" يدل عليه اختلاف صيغتى : المصدر تبتيلاً ، والفعل تبتّل ، وله فضل " الإيجاز " الدال للجمع بين الاثنين كما سيرد بيانه.

السامع من عدها"[1]، "فإن ذلك موجب لتدبره فتكشف "لك" مهماته وتتجلى أسراره وخفياته ، [ولقد قيل فى ذلك:] قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة ... ولما أعلم– سبحان – بالترتيل،أعلم بشرفه بالتأكيد بالمصدر ، فقال : "ترتيلا "[2].

أما فائدة التعليل فى قوله تعالى : (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) وصلتها بهذا الشأن ، فلا تخفى مناسبته لما قبله من الأمر بالقيام وترك الراحة ، والتفرغ للتهجد بالليل ، "ويعنى بالقول الثقيل القرآن وما فيه من الأوامر والنواهى التى هى تكاليف شاقة على المكلفين ... وأراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التى ورد بها القرآن ، لأن الليل وقت السبات والراحة والهدوّ ، فلابد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه ... وعن الحسن : ثقيل فى الميزان ، وقيل : ثقيل على المنافقين ، وقيل : كلام له وزن ورجحان ليس بالسفاسف"[3] . و"سنلقى عليك" : "أى سنوحى إليك وإيثار الإلقاء عليه لقوله تعالى : "قولا ثقيلا" [4].

ولقد اتخذ بيان شأن هذا القيام ، وهذه الصلاة ، وهذا الترتيل ، وكون ذلك بالليل ، جمعاً لأطرافه ، وإيضاحاً للغاية منه ، وبياناً لما ينشأ عنه من قوة لا تتحقق بسواه فى قوله تعالى : (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا).

فقوله تعالى : (نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) تعلق فيها ذكر الليل بذكر النفس التى تقوم فيه بدرجة المجاهدة التى تتحقق فى ذلك القيام بهذه الإضافة الدالة بإيجازها من خلال لفظتى: اسم الفاعل وما أضيف إليه من لفظ الليل.

ذلك أن : (نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) هى "النفس الناشئة بالليل التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، أي تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٢٩ : ١١٦.
(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : البقاعى : ٢١ : ٨ .
(٣) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٧٥ .
(٤) روح المعانى : الألوسى : ٢٩ : ١١٦ .

ارتفعت"[1] ، وقيل : (نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) : "ساعاته لأنها تنشأ أى تحدث واحدة بعد واحدة ، أى : متعاقبة" [2]،وقيل: "هى ما ينشأ فيه ويتجدد من الطاعات والعبادات ، من نشأ إذا حدث وتجدد" [3]، وقيل : "هى ما ينشأ بعد العشاء" [4].

ولقد ناسب ذلك المعنى وما يتعلق به من المشقة وما يشير إليه من السمو الخاص أن ورد الضمير المؤكد العائد على(نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) موضحاً تميزها ومالها من هذا الاختصاص فقال تعالى : (هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا) أي "هى خاصة لما لها من المزايا"[5] ، أو "هى خاصة دون ناشئة النهار أشد مواطأة ، يواطئ فيها قلبها لسانها إن أريد بالناشئة النفس المجتهدة ، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه إن أريد بها القيام أو العبادة أو الساعات ، والإسناد على الأول حقيقي وعلى هذا مجازى"[6].

وهذا الإخبار عن (نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) باسم التفضيل "أشد" وإتباعه بالتمييز "وطئا" وعطف اسم تفضيل آخر عليه فى : "أقوم" وإتباعه كذلك بتمييز يوضحه جميع ذلك يحقق دلالات قوة الخشوع ، وحسن التدبر ، وتقوية النفس على إدراك المعانى ، واستحضار هيبة الموقف وجلال هذا القيام ، بما تعلق به من أسباب ذلك ودواعيه التى هى "أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص [أو] أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق"[7] ، [أو هى] "أثقل وأقوى وأمتن وأرصن "وطئا" أى كلفة ومشقة لما فيها من ترك الراحة ... ، وأشد ثبات قدم ... فى الحضور وفى التزام الدين بالإذعان والخضوع" [8].

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٧٥ .
(٢) روح المعانى : الألوسى : ٢٩ : ١١٧ .
(٣) تفسير جزء تبارك : عبدالقادر المغربى : ١٧٤ . تعليق : على محمد حسب الله. المطبعة الأميرية بالقاهرة . ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
(٤) فى ظلال القرآن : سيد قطب : ٢٩ : ٣٧٤٤ .
(٥) نظم الدرر : البقاعى : ٢١ : ١١.
(٦) روح المعانى : الألوسى : ٢٩ : ١١٧ .
(٧) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٧٥.
(٨) نظم الدرر : البقاعى : ٢١ : ١١ .

كما أنها "أقوم قيلا" وأسد مقالا ، وأثبت قراءة لهدو الأصوات"(١).

وتصوير الشدة والمشقة اتخذ طريقه لبيان معنى المجاهدة الملابس لقيام الليل، واتخذ طريقه إلى التأكيد على نحو ما سبق بيانه ، وتتالت في ذلك الآيات على نحو مستهل بإن المؤكدة وغيرها ، كما اتضح والتقى في ذلك : القول الثقيل، بناشئة الليل على هذا النحو الذى سبق أيضاحه "ولما كان التهجد يجمع القول والفعل، وبيّن ما فى الفعل لأنه أشق ، فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أحق ، أتبعه القول فقال : "وأقوم قيلا" أى وأعظم سداداً من جهة القيل فى فهمه ووقعه فى القلوب بحضور القلب"(٢).

ثم أتبع ذلك كله بالأمر بالذكر والتبتل فقال تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا) ، فامتدت دلالة المعانى من حدود الليل لتشمل الليل والنهار ، واتسع مجال العبادة ليتضح ، منطلقاً من التهجد إلى الذكر فى كل صوره جامعاً الصلاة والذكر وتلاوة القرآن ، أى : "ودم على ذكره – سبحانه – فى ليلك ونهارك واحرص عليه ، وذكر الله يتناول كل ما كان من تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك ، مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره" (٣).

ولقد بينت دلالة الفعل "وتبتّل" بصيغة التفعُّل ، والمصدر "تبتيلا" بصيغة التفعيل ، الجمع بين معنييهما ، فمادتهما دائرة حول معنى: "الانقطاع أو القطع وقيل : البتول مريم عليها السلام لانقطاعها إلى الله تعالى عن جميع خلقه ، وكذا فاطمة الزهراء لانقطاعها عن مثيل ونظير " (٤).

والجمع بينهما على هذا النحو من "الاحتباك" الذى يدل فيه كل

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٧٥.
(٢) نظم الدرر : البقاعى : ٢١ : ١٢.
(٣) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٧٦ .
(٤) نظم الدرر : البقاعى : ٢١ : ١٤.

مذكور على ما يتصل به بغير ذكره ، فكان المعنى : وتبتل تبتلا وبتل نفسك تبتيلا ، مما يؤكد دلالة كليهما والإشارة بها إلى غاية الإخلاص ، والأخذ غير المنقطع فى أسباب تقوية النفس لذلك الغرض.

وهذا الأسلوب المفصل الذى اقترن فيه النداء بالأمر الموجه إلى النبى ﷺ يتضمن تحقيقا وإيضاحاً لغايات الأمر الواردة فى أساليب أخرى موجزة.

منها قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) (١).

فقد ورد الأمر بالتهجد هنا – على هذا النحو الموجز – مقترنا بذكر إقامة الصلاة المفروضة ، فاتضح أنه "عبادة زائدة [له] ﷺ على الصلوات الخمس ، ووضع نافلة موضع تهجدا ، لأن التهجد عبادة زائدة ، ... والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك لأنه تطوع لهم"(٢). وأتبع ذلك بقوله تعالى : (عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) مما وضح وجه اختصاصه ﷺ بهذه العبادة الزائدة المتصلة بمقام النبوة والرسالة .

ومن الملاحظ هنا تقديم ذكر الليل فى إطار التعلق بالجر على متعلقه ، حيث قال تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ) مما يوضح اختصاص هذه الصلاة بفضل متميز مقتصر عليها.

وهذا التقديم يتضح أيضا فى قوله تعالى : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) (٣).

فورد قوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ) متقدماً على متعلقه : " فَسَبِّحْهُ " فى إطار جامع للأمر بالصبر والتسبيح بحمده تعالى ، ومشتمل على بيان

---

(١) سورة الإسراء : الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٤٦٢ .

(٣) سورة الطور : الآيتان ٤٨ ، ٤٩.

حفظ الله تعالى ورعايته لنبيه ﷺ فى قوله تعالى : (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .

وهذا التنبيه إلى شأن الليل وما يكون فيه من العبادة اتخذ طريقه إلى البيان فى سياق الثناء على المتقين مما ورد فى إطار ذكر أسباب استحقاقهم للجزاء العظيم فى قوله تعالى : (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) [(١)].

نداء نساء النبى -ﷺ- وأمرهن بالصلاة ودلالته :

اتجه الأسلوب القرآنى الكريم إلى نساء النبى ﷺ مناديا ، ومبينا فضلهن وتميزهن على سائر النساء ، ثم ورد أسلوب الأمر بإقامة الصلاة ضمن مجموعة من أساليب النهى والأمر المناسبة لما هيأهن الله تعالى له من ذلك التميز ، ثم علل فى استئناف بيانى سر ذلك فى أسلوب قصر واضح دال ، فقال تعالى : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) [(٢)].

فبعد النداء بقوله تعالى : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ) تنبيها إلى شأنهن وما يستحق هذا الشأن من شريف الأفعال وكريم الخصال ، أكد ذلك ببيان وجوبه وتميزه نظرًا لكونهن لسن "كأحد من النساء".

وبعد أن أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ضمن هذه المجموعة المتتالية من الأوامر والنواهى ، قال تعالى معللا أمرهن ونهيهن : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فى هذا القصر بإنما مما يناسب المقام ــ مقام التأكيد وزيادة التميز بشرف الانتماء إلى النبى ﷺ ـ، وقد زاد ذلك بيانا بإعادة ذكرهن تنبيها على اختصاصهن به فى قوله تعالى : (أَهْلَ الْبَيْتِ) بين المعطوف (وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) والمعطوف عليه (لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ) ، وهو بدوره عطف مبين تنوع أثر هذا التطهير المؤكد بمصدره ، وذهاب الرجس اللذين اتصلا فى أسلوب القصر بإرادة الله تعالى على هذا النحو الواضح ،

(١) سورة الذاريات : الآية ١٧.
(٢) سورة الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣.

"وقيل : المراد بالتطهير : التحلية بالتقوى ، والمعنى على ما قيل : إنما يريد الله ليذهب عنكم الذنوب والمعاصى فيما نهاكم ويحليكم بالتقوى تحلية بليغة فيما أمركم ، وجوز أن يراد به الصون ، والمعنى : إنما يريد سبحانه ليذهب عنكم الرجس ويصونكم عن المعاصى صوناً بليغاً فيما أمر ونهى جل شأنه" (١).

وواضح أن تجسيد الذنوب باستعارة الرجس لها ؛ والتقوى باستعارة الطهارة لها واجتماعهما على هذا النحو له فضله فى بيان فضل هذه الأعمال الموصلة إليهما.

إن عطف الأمر العام هنا : (وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) على الخاص : (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ) قد تضمن تكرار الخاص تعظيماً لشأنه ، فضلاً عن كونه متميزاً – فى إطار هذا الخطاب وما اقترن به من التعليل الوارد فى أسلوب القصر– بخصوصية أخرى تميز شأنه كما اتضح ، وفى الانتقال من ذكر الخاص: الأمر بالصلاة والزكاة إلى الأمر بالطاعة العامة فضل آخر ، حيث يمثل الأول منهما تهيئة للثانى ، ومنطلقاً سببياً له ، "فقد أمرهن – سبحانه – أمراً خاصا بالصلاة والزكاة ، ثم جاء به عاماً فى جميع الطاعات لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات ، من اعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه إلى ما وراءهما ... واستعار للذنوب الرجس ، وللتقوى الطهر ، لأن عِرض المقترف للمقبحات يتلوث بها ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس ، وأما المحسنات فالعرض معها نقى مصون كالثوب الطاهر ، وفى هذه الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ، ويرغبهم فيما يرضاه لهم مما أمرهم به" (٢).

بيان شأن الصلاة فى ضوء نداء المؤمنين عامة :

نداء المؤمنين وتشريع الوضوء والتيمم :

أما نداء المؤمنين ففيه الحث على الانتباه إلى مقتضيات الوصف بالإيمان، ووجوب الالتزام به تحقيقاً له ، وتمييزا لهم عمن لا يتصف

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٢٢ : ١٩٣

(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٢٦٠ .

بـه ، فهـو بـذلك يتضـمن تعريضـاً بسـواهم ، وتشـريفاً لهـم بـالالتزام بالتكاليف التى صارت فى صدورها عن إيمانهم سمة لهم ، ينبغى لهم إكمالها والحفاظ عليها ورعايتها.

وقد كثر فى القرآن الكريم نداء المؤمنين فى مقام التشريع بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) .

وفى مقام الأمر بإقامة الصلاة وما يجب لها من شروط لا تصح إلا بها، ورد الأمر مصحوبا بهذا النداء الكريم ، فقال تعالى فى الأمر بالوضوء والطهارة والتيمم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [1].

واتخذت العناية ببيان شأن الصلاة هنا مبلغها الذى يتضح بتأمل كل عنصر من مكونات هذا السياق الكريم على حدة ، ثم بالنظر إليها مجتمعة.

فقد استهل ذلك بالنداء ، واقترن النداء بوصف المنادى بصفة الإيمان ، وبعد إن تم الثناء والتنبيه والإشعار بأهمية ما سيرد من مقتضيات الوصف بالإيمان ، انتقل إلى أسلوب الشرط (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ....) ، فجاءت "إذا" بتضمنها معنى الظرف إشارة إلى وقت قيامهم إلى الصلاة ، وجاء فعل الشرط "قمتم" دالا على إرادة القيام إليها لما بينهما من علاقة اللزوم الدالة على ما يكمن فى الإرادة من صدق النية والعزم والقصد ، مما يتسبب عنه هذا القيام ، فهذا المجاز الجامع للسبب والمسبب أو اللازم والملزوم أبلغ من التصريح بهما ، ففيه الإشارة إلى قوة التلازم ، وصدق القصد والعزم بحيث صار المسبب مغنياً عن ذكر سببه المعروف الذى لا وجود له إلا به ، فمعنى "قمتم إلى

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .

الصلاة قصدتموها؛ لأن من توجه إلى الشيء وقام إليه كان قاصداً له لا محالة، فعبر عن القصد له بالقيام إليه ..."[1] وفائدته "التنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة"[2].

وجاءت جملة الشرط المتضمنة هذا الفعل (قمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ) مشتملة على المسند إليه "الضمير" العائد على "المنادى"، ليتعلق بها النص على ما قصدوا إليه وهو "الصلاة".

وورد النص الصريح على الصلاة بلفظها هنا متقدماً على ما يشترط لها مما ورد بعدها تعظيما لشأنها، وبياناً لكون ما ورد بعدها من الشروط داخلة في أعمالها، وهما معا داخلان في إطار النية المتقدم ذكرها متضمنة في فعل الشرط "قمتم".

أما ورود جواب الشرط "فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ..." وما تلاه، في هذا الأسلوب الشرطي الزمني الدال، فقد حقق معنى تلازمهما معاً، وبناء صحة الشرط "القيام إلى الصلاة" على جوابه.

وبينما اقتصر هنا في ذكر الصلاة على القيام إليها بجملة الشرط، اتجه التفصيل والإيضاح والتحديد إلى جملة الجواب وما بني عليها واتصل بها، ذلك أنها مدار التشريع هنا، والتنبيه الذي أشار إليه النداء والوصف بالإيمان وأسلوب الشرط، اتجه إلى شأن هذا التشريع وبيانه، والإشارة إلى كونه شرطاً لا تصح الصلاة إلا به.

لذا فقد وردت عناصره واضحة الدلالة، فيها بيان تفصيلي لكل عنصر على حدة، إيضاحا لما يجب إزاءه من أعمال الوضوء أو التطهر أو التيمم وتحديدا لمواضعه.

واتخذ أسلوب الأمر في ذلك وضوحه وبيان غايته حيث أسند إلى المخاطبين في كل حال، وتضمن في ذلك ما يوضح المقصود منه وابتدئ بما يدل على أول الأعمال ثم انتقل إلى ما يليها على الترتيب

---

(١) الكشاف : الزمخشري : ١ : ٥٩٦.
(٢) روح المعاني : الألوسي : ٦ : ٢٤١.

الذى يجب الالتزام به حال الوضوء.

فجاء قوله تعالى : (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) "أى أسيلوا عليها الماء" (١)، مسندًا إلى واو الجماعة ، أمرًا حقيقيا يقتضى الوجوب والإلزام كباقى صيغ الأمر الواردة هنا فى مجال تشريعي ، وجاء مفعوله "وجوهكم" مضافا إلى ضمير هؤلاء المخاطبين وحثا لهم على التنبه إلى العناية بالأمر على الوجه المطلوب ، ثم ورد العطف بالواو التى تقتضى الجمع والمساواة لتعطف الأيدى على الوجوه فتدخل معها فى إطار الحكم بالغسل ، وتشهد العناية بالتحديد هنا مجالها فى قوله تعالى : "إلى المرافق"(٢) بعد أن قال : "أيديكم" بالإضافة إلى ضميرهم كذلك ، وهذا التحديد أشار إلى دخول المرافق فى هذا الغسل .

أما عطف الأمر "امسحوا" فى قوله تعالى " (وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ) ، ففضلاً عما اقتضاه وجوده فى موضعه من الترتيب الكائن فى أعمال الوضوء إلا أنه استقل عن سالفه "اغسلوا" بدلالة أخرى وهى مجرد المسح.

وورود الباء هنا وتجرد ما سبق عنها له دلالته التى يوضحها صاحب البرهان بقوله : "الباء أصله للإلصاق ، ومعناه اختلاط الشىء بالشىء... ومعنى (وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ) : اجعلوا المسح ملاصقاً برءوسكم ، وكذا بوجوهكم – [يشير إلى (فامسحوا بوجوهكم) فى مجال التيمم] – أشار إلى مباشرة العضو بالمسح، وإنما لم يحسن فى آية الغسل : فاغسلوا بوجوهكم ، لدلالة الغسل على المباشرة" (٣).

أما ما ورد بعده من العطف فى قوله تعالى : (وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى

---

(١) السابق : ٦ : ٢٤٢.

(٢) والمرافق – كما هو معلوم – جمع مرفق وهو : موصل الذراع فى العضد ، ولعل وجه تسميته بذلك أنه يرتفق به أى يتكئ عليه اليد ، وجمهور الفقهاء على دخولها (أى فى الغسل) ، وحكى عن الشافعى – رضى الله عنه – قال : "لا أعلم خلافا فى أن المرافق يجب غسلها ، ولذا قيل : إلى بمعنى مع كما فى قوله"وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ "[هود:٥٢]:انظر:روح المعانى: الألوسى: ٦: ٢٤٢.

(٣) البرهان فى علوم القرآن : الزركشى : ٤ : ٢٥٢ ، ٢٥٣.

الكَعْبَين) فقد تضمن هذا التحديد الدقيق لمكان الوضوء منها حيث قال : "إلى الكعبين" "وهما العظمان الناتئان فى كل رجل عند مفصل الساق والقدم"[1] ، وعلل الزمخشرى الخلاف فى قراءتها نصبا أو جرا وما يتعلق بذلك من حكم الغسل أو المسح فقال : "قرأ جماعة وأرجلكم بالنصب فدل على أن الأرجل مغسولة. فإن قلت : فما تصنع بقراءة الجر ودخولها فى حكم المسح ؟ قلت : الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة ، تغسل بصب الماء عليها ، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهى عنه فعطفت على الرابع الممسوح لا لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد فى صب الماء عليها" [2].

وبعد أن تم بيان الوضوء على هذا النحو ، اتخذ الأسلوب طريقه لبيان حال الطهارة وموجباتها ، وجاء الأمر هنا مقتصراً على فعل واحد دال لما فيه من الكفاية بصيغته ودلالته ، واستغناء هذه الصيغة وتلك الدلالة عن الوسائل الموضحة، ورد ذلك فى جواب الشرط "فاطّهروا" فى قوله تعالى : (وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا) ؛ بما تدل عليه من المبالغة فى معنى الطهارة أى : "فاغتسلوا على أتم وجه ... والمضمضة والاستنشاق هنا فرض كغسل سائر البدن لأنه سبحانه أضاف التطهير إلى مسمى الواو وهو جملة بدن كل مكلف فيدخل كل ما يمكن الإيصال إليه إلا ما فيه حرج كداخل العينين فيسقط للحرج ، ولا حرج فى داخل الفم والأنف فيشملهما نص الكتاب من غير معارض ، كما شملهما قوله ﷺ فيما رواه أبو داود : "تحت كل شعره جنابة فبلوا الشعر وأنقوا البشرة" [3].

والعناية باستخدام العناصر اللغوية والبلاغية الدالة على كيفية الوضوء والتطهر وما ورد بعدهما من التيمم ، هى عناية بشأن الصلاة ، وتعظيم لقدرها ، تتجلى العناصر الدالة عليها فى كل حال ، فالألفاظ دالة ، والجمل متتابعة ، والربط بينها له دلالاته ، والإسناد إلى ضمائر المخاطبين ذات المرجع الواحد المجتمع لدى النداء فى صدر الآية مؤكد

---

(١) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى بن عثمان ١ : ٢٢٨.

(٢) الكشاف : الزمخشرى : ١ : ٥٩٧ .

(٣) روح المعانى : الألوسى : ٦ : ٢٥٢ . واصل اطهروا : تطهروا ، أدغمت التاء ، فاجتلبت الهمزة، وتعميم البدن واجب إجماعاً . انظر : ضياء التأويل : فوديى بن عثمان : ١ : ٢٢٨.

شأنهم فى إطار هذه الأحكام الواجبة ، وشأن وجوب الالتزام بها لصحة الصلاة ، وشأن الصلاة التى من أجلها كانت هذه العناية وهذه الأسس التشريعية.

وإلى جانب العناصر الواضحة من نداء وأمر مكرر هنا ، وردت عناصر تقسيم الأسلوب إلى مراحل واضحة لا يخرج حال المخاطبين عنها ، فبعد الفراغ من بيان المرحلتين السابقتين "الوضوء" و"الطهارة" وما يلابسهما من النية والحال، انتقل عبر أسلوب الشرط ذى العناصر المتعددة التى توضح بأقسامها جميع أحوال المخاطبين التى يتعذر معها ما سبق ذكره من وضوء وطهارة إلى بيان التيمم ، فورد قوله تعالى : (وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ).

فجمع الأسباب التى تدعو إلى الطهارة أو الوضوء بالواو فى إطار الشرط "إن" جمعاً شاملاً ، وجعلها فى إطار حال واحدة وهى حال افتقاد الماء ، وبعد أن اكتمل بيان ذلك ورد الأمر "فتيمموا" حالاً محل ما تعذر من استخدام الماء ، مبيّناً بالنعت صفة المتيمم به : (صَعِيدًا طَيِّبًا) وموضحاً كيفيته : (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ) .

ما يكمن وراء هذا التشريع من دلالات تتعلق بطهارة النفس وتهيؤها للصلاة:

ولا يخفى ما فى هذه العناية بتحقق شرط صحة الصلاة – من هذا الجانب – من سمو شأن الصلاة إلى هذا الحد الذى لا يبيح ترك الوضوء أو بديله التيمم ، كما لا يباح ترك الصلاة حتى فى حالة القتال ، فلرفع المشقة وضع البديل المتاح دائماً "الصعيد الطيب" ، تحقيقاً لصحة الصلاة ، وعناية بشأن النفس التى قامت إليها لتستشعر تلك المهابة المقترنة بها فـ "مشروعية الطهارة بالبدل فى هذه الأحوال إنما هو لقصد إقرار التطهر للصلاة فى النفس ، وإن الترك فى أوقات الأعذار للطهارة الأصلية لسبيل بحسب العرف والعادة إلى التهاون بها فى أوقات

الأعذار ، ولا يجهل أحد ما تخلقه المواظبة من ملكة الاحتفاظ بأصل المطلوب ، ... ومن حكمة الله أنه لم يجعل البدل شيئاً يعزّ وجوده ، أو يصعب استعماله على أحد من خلقه ... (ولقد) اقتصر منه على ما يحقق الرمز والوجود الشبهى ، وكان مظهر ذلك فى الاقتصار على مسح بعض أعضاء الوضوء ، وهو الوجه والأيدى فقط ، ... وساق مسح هذين العضوين بصيغة ليس لها دلالة على إرادة تعميمهما بالمسح على نحو تعميمهما بالماء فى الوضوء ، فعدى المسح إلى الوجوه بالباء على نحو ما عداه إلى الرأس فى الوضوء ، ... وعداه إلى اليدين دون ذكر الغاية، وبذلك فتحت باب الاكتفاء بمسح ما تطلق عليه كلمة "أيدى" وبذلك صح الاقتصار فيه على مسحهما إلى الرسغين ، إذ كان إطلاق اليد على هذا القدر شائعاً عند العرب، معهوداً فى القرآن ؛ ذلك أن الرمز لا يقصد منه تمام مشاكلة البدل للأصل، وإنما يقصد منه الاحتفاظ بتعود الأصل والمواظبة عليه"(١).

بيان قدر هذا التشريع وغايته وصلته بتعظيم شأن الصلاة وما يتعلق بها :

لقد مثل هذا الحكم التشريعي ذو الجوانب المتعددة قاعدة شرطية لصحة الصلاة، فصار شأنه من العظم مستمدًا مما يترتب عليه من صحة الصلاة أو بطلانها، بقدر ما يكون من الالتزام به أو التهاون فيه.

هذا القدر تطلب التنبيه إليه بالنداء ، وتقسيم الأسلوب ، وبيان العناصر ، والعناية بكل جانب ، وحصر الأحوال الملابسة ، على هذا النحو الدقيق ، ثم تطلب أيضا – أخذا بالأيدى لإدراك فضله – ببيان الحكمة منه ، فى ذلك التعليل الذى اختتمت به الآية ، وهو قوله تعالى : (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، حيث "ذيلت الآية بما يدل على أن إرادة الله – تعالى – من هذا التكليف إنما هى : تطهير عباده وإتمام نعمته عليهم"(٢).

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت : ٣١٩ : ٣٢١.
(٢) السابق : ٣٠٤.

فنفى سبحانه إرادة الحرج فى : " مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ " ، وأثبت إرادة التطهير وإتمام النعمة الموجبتين للشكر فى قوله : (وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

واستخدم فى جميع ذلك الفعل المضارع "يجعل – يطهركم – يتم – تشكرون" مفيداً الاستمرار مع التجدد مما يتناسب مع الالتزام بهذا التشريع المستمر المتجدد مع كل صلاة وحال يلابسها.

نداء المؤمنين وأمرهم بذكر الله وتسبيحه وعلاقته ببيان شأن الصلاة :

ورد ذكر تسبيح الله عز وجل فى صيغة الأمر معطوفاً على الأمر بذكر الله تعالى ذكراً كثيرا عطفا للخاص على العام ، بيانا لفضله ، بعد نداء المؤمنين عامة، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (١).

وقيل فى بيان معنى الأمر بالتسبيح بكرة وأصيلاً – هنا – "هى الصلاة فى جميع أوقاتها لفضل الصلاة على غيرها ، أو صلاة الفجر والعشاءين لأن أداءها أشق، ومراعاتها أشد" (٢).

وذكر طرفى النهار بكرة وأصيلا – كما ورد فى الكثير من المواضع – إشارة إلى استمرار الذكر فى كل حال بالمداومة عليه "فتخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لفضلهما ... لكونهما تحضرهما ملائكة الليل والنهار وتلتقى فيهما كإفراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة بينها ..." (٣).

وعلاقة التسبيح والذكر بالصلاة علاقة اشتمال ، أو هى علاقة الجزء بالكل وتخصيصه بالذكر فى الأمر العام ثم الخاص هنا ، ثم

---

(١) سورة الأحزاب : الآيات ٤١ : ٤٣ . والصلاة من الله تعالى رحمة ، ومن الملائكة استغفار.
(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٢٦٥ .
(٣) روح المعانى : الألوسى : ٢٢ : ٢٠٩.

ارتباطه بما ورد بعده من الاستئناف المعلل له فى قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) إيضاح لشأن ذلك الذكر باقترانه بتلك الصلاة فى سياق واحد على هذا النحو الاستئنافى ، صلاة من الله تعالى ، وصلاة من الملائكة المكرمين ، وصلاة من المؤمنين أو ذكر كثير وتسبيح ممتد بكرة وأصيلاً.

وفى ذلك التعليل المتضمَّن فى الاستئناف حث وترغيب على ما تقدم من أمر بالذكر الكثير المؤكد بالمصدر ، والمنعوت بما بين نوعه "اذكروا الله ذكرًا كثيرًا" ، وأمر بالتسبيح "بكرة وأصيلا" ، فمعناه "هو الذى يترحم عليكم ويترأف بكم حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة "ليخرجكم من" ظلمات المعصية إلى الطاعة "وكان بالمؤمنين رحيما" دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة (١).

نداء المؤمنين وأمرهم بالركوع والسجود فى إطار الأمر بالعبادة عامة :

وهنا يرد ذكر الركوع والسجود وعبادة الله تعالى وفعل الخير مطلقاً على نحو تتتابع فيه أفعال الأمر فى تجاور انتقالى من الخاص إلى العام ، ليتكرر فى ذلك ذكر المعطوف عليه بدخوله فى المعطوف ، إبرازا لشأنه فى سياقه.

ثم يعاد الأمر بالعبادة وعلى رأسها إقامة الصلاة فى أمر آخر متلو بصيغ الأمر المتصلة به كذلك فى إطار ما ذكر قبله.

وبين هذين القسمين المتصلين يرد بيان فضل ذلك وأسباب وجوبه.

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٢٦٥.

الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (١).

فقد ورد الأمر بالركوع والسجود بعد النداء ، وعطف عليهما الأمر بالعبادة مبينا وجوبها وما يجب فيها من إخلاص وصدق توجه إلى الله تعالى من خلال جعل معمول "اعبدوا" "رب" وإضافته إلى ضميرهم ، وبعد عطف العام من العبادة على الركوع والسجود ، عطف أمرا عاما آخر يدخل كل ما سبقه تحته في قوله تعالى (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ) معللا ذلك بقوله عز وجل : (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وتلا ذلك جزء أسلوبى آخر انتقل فيه من الأمر بالعبادة إلى الأمر بالمجاهدة ، مؤكدا فى قوله تعالى:(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) "فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله ، صحت إضافته إليه" (٢).

وبعد أن بين –سبحانه – فضل هذا الدين وما جاء به وما يتضمنه من اختيار واصطفاء للمؤمنين وما يكون من شأنهم وشأن نبيهم - ﷺ - عاد فأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فورد الأمر بعد التعليل له هنا فى صورة المسبَّب لما قبله ، ثم عطف عليه قوله : (وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ) ، فجمع ما سبق ذكره فى إيجاز دال على وجوب المجاهدة فى سبيله ، والمداومة على عبادته وتوحيده والالتجاء إليه ، ثم علل مرة أخرى فقال : (فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ).

نداء المؤمنين وأمرهم بالسعى إلى صلاة الجمعة وبيان شأن هذه الصلاة:

تعددت صيغ الأمر بعد نداء المؤمنين توضيحاً لشأن صلاة الجمعة ، كما تعددت العناصر الدالة على هذا الشأن ، فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى

---

(١) سورة الحج : الآيتان ٧٧ ، ٧٨.

(٢) الكشاف : الزمخشرى : ٣ : ٢٤ . اجتباكم : اختاركم لدينه ولنصرته .

ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) (١) مستهلا بالنداء المذكّر بوجوب الإنصات إلى ما بعده والالتزام بما يقتضيه الوصف بالإيمان.

ثم بادرهم بالشرط المتضمن معنى الظرف "إذا" ، ثم جعل جملة الشرط (نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ) ، مشعراً إياهم بأن الأمر الذى سيأتى بعده محدود بهذا الظرف الزمنى لحظة النداء لتلك الصلاة فى ذلك اليوم. ثم جعل جملة جواب الشرط (فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) فى عناية دالة بهذا السعى الذى هو (القصد دون العدو ، [وهو لا يقتصر على السعى على الأقدام] قال الحسن : ... سعى بالقلوب، وسعى بالنية ، وسعى بالرغبة](٢) وقيل معناه : "امشوا إليه بدون إفراط فى السرعة"(٣).

وجعل هذا السعى "إلى ذكر الله" ، فلم يقل جل شأنه : إلى الصلاة ، تعظيماً لشأن ما تتضمنه من شعائر ، أى "إلى الخطبة والصلاة" (٤).

وأتبع ذلك بأمر آخر معطوف عليه فقال تعالى (وَذَرُوا الْبَيْعَ) فاقترن الأمر بالسعى إلى ذكر الله بالأمر بترك البيع "أى واتركوا المعاملة ، على أن البيع مجاز عن ذلك فيعم البيع والشراء والإجارة وغيرها من المعاملات ، ... والأمر للوجوب فيحرم كل ذلك" (٥). "وقال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع"(٦).

ثم علل مبيناً لهم ما من شأنهم أن يغفلوا عنه فقال تعالى : (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (٧).

فاتضح فى هذه المفاضلة فضل المأمور به من السعى إلى ذكر الله وترك البيع ونفعه بالإشارة إليه بقوله (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ) معقبا بالشرط

---

(١) سورة الجمعة : من الآية ٩ .
(٢) مفاتيح الغيب : الفخر الرازى : ٣٠ : ٨ .
(٣) روح المعانى : الألوسى : ٢٨ : ٢٩٣ .
(٤) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٠٤ .
(٥)روح المعانى : الألوسى : ٢٨ : ٢٩٣.
(٦) مفاتيح الغيب : ٢٩ : ٨ .
(٧) سورة الجمعة : من الآية ٩.

(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى "الخير والشر الحقيقيين"[1] معرضا بغفلتهم عن ذلك.

الإظهار فى موضع الإضمار وأثره فى بيان شأن الجمعة :

ولقد عنى السياق الكريم هنا بصلاة الجمعة وما يجب لها ، متتبعاً ذلك الشأن من النداء وما يجب عنده من السعى إلى ذكر الله وترك البيع ، مبينا فضل ذلك ووجوب علمه وعدم الغفلة عنه ، وامتد إلى ما بعد انقضاء الصلاة فقال تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [2].

فعاد الشرط "إذا" إلى الظهور لبيان زمن انقضاء الصلاة ، ووردت جملة الشرط – كسالفتها – بفعل ماض "قضيت الصلاة" ، وجاء ذكر الصلاة مظهراً فى موضع الإضمار بيانا لشأنه وتعظيماً لقدر العناية به ، وتُرك فى ذلك الفاعل ببناء الفعل للمجهول، فالشأن هنا لانقضاء الصلاة التى عليها مدار الأمر وإظهار القدر، ولأجلها ورد الإلزام والحظر ، ثم أبيح ما سبق حظره صدورًا عن انقضائها.

وورد الأمر "فانتشروا" جواباً للشرط "إذا" هنا ، وعطف عليه الأمر "ابتغوا" ثم "اذكروا" ، فاقترن ما أبيح من الانتشار فى الأرض وابتغاء فضل الله بذكر الله تعالى ، فاجتمع الذكران : ذكر توجهوا إليه حين "نودى للصلاة" وتركوا البيع، وذكر بعد انقضاء الصلاة ؛ ذكر "لا يجتمع مع التجارة أصلا ، إذ المراد منه الخطبة والصلاة ، والثانى من جملة ما يجتمع كما فى قوله تعالى: (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ). [3]

ورود أسلوب النداء فى إطار أسلوب ((الوعظ والاستمالة)) :

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ٢٨ : ٢٩٣ .

(٢) سورة الجمعة : الآية ١٠.

(٣) مفاتيح الغيب : الفخر الرازى : ٣٠ : ١٠.

واتخذ تعظيم شأن الصلاة إطاراً آخر اتضح فيه شكل عملي من أشكال الوعظ والإرشاد إلى مهام الأمور، وكيفية الدعوة "بالحكمة والموعظة الحسنة"، وذلك في قوله تعالى حكاية عن لقمان: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ). [1]

فبعد النداء بقوله "يا بنى" استمالة له، بدأ بالأمر بإقامة الصلاة مبيناً له شأنها بهذا الاستهلال؛ وذلك بعد أن فرغ من أمره بما يتعلق بالعقيدة من توحيد الله تعالى ونهيه عن الشرك "تكميلاً له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد... وروى أنه قال: يا بنى إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلها، واسترح منها فإنها دين، وصل في جماعة..." [2] وعطف على ذلك الأمر؛ بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على ما أصابه في صيغ الأمر المتتالية، ثم جمع معللا في حكم واحد مؤكداً: (إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

وتسمية اسم المفعول أو اسم الفاعل بالمصدر في قوله "عزم الأمور" [3] له دلالته على تعظيم الشأن لجمعه بين دلالة المصدر الذى ورد عليه، ودلالة اسم المفعول أو اسم الفاعل الذى حل محله، وتقديم هذا الوصف بالمصدر في "عزم" على "الأمور" بإضافته إليه عناية بشأن وجوب هذه الأمور وما تقتضيه من صبر ومجاهدة.

يقول الزمخشري في هذه الآية: "وناهيك بهذه الآية مؤذنه بقدم هذه الطاعات وأنها كانت مأموراً بها في سائر الأمم، وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن سابقة القدم على ما سواها موصى بها في الأديان كلها". [4]

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٢) روح المعاني: الألوسي: ٢١: ٨١.

(٣) حقيقته: معزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها، ويجوز أن يكون مصدراً في معنى الفاعل أصله من عازمات الأمور من قوله تعالى: (فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ): الكشاف الزمخشري: ٣: ٢٣٣.

(٤) الكشاف: الزمخشري: ٣: ٢٣٤.

إظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فى مقام الدعاء بنداء الله تعالى تضرعا :

وفى مقام الدعاء الصادر عن إبراهيم عليه السلام ، وجد النداء طريقه إلى إظهار شأن الصلاة فى إطار متميز ، تعددت عناصره البلاغية واجتمعت لتحقيق هذه الغاية.

قال تعالى حكاية عن إبراهيم – عليه السلام – (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء * الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء)[1].

فقد تكرر النداء فى مقام الدعاء ، وأظهر الداعى – عليه السلام – غايته من إسكان ذريته " بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ " عند بيت الله المحرم ، ، فهى أن يقيموا الصلاة عند بيت الله الحرام ، إقامة لها شأنها.

هذا هو الغرض الذى من أجله أسكنهم ، وإقامة الصلاة هناك هى التى من أجلها دعا أيضا فقال : (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)، ثم عاد وجعل إقامة الصلاة والمداومة عليها هى غايته فى قوله داعيا لنفسه ولذريته : (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي) مظهرا الحرص الشديد على قبول هذا الدعاء ، لما يعلم من شأنه إذا استجيب ، فقال : (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء).

فلقد تكرر النداء وتكرر الدعاء وظهرت إقامة الصلاة هى الغاية فى كل حال "كأنه قال : ما أسكنتهم فى هذا الوادى إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم فيعمروه بذكرك وعبادتك ، سعداء بجوارك ، متقربين إليك بالعكوف لدى بيتك والطواف به ، والركوع والسجود حوله ، ...

(١) سورة إبراهيم : الآيات ٣٧ : ٤٠.

(ثم) دعا ربه أن يوفقه لإقامة الصلاة ويوفق بعض ذريته لها" [1].

وتعظيم شأن الصلاة هنا مستمد – بالإضافة إلى العناصر البلاغية واللغوية الدالة – من مقام الدعاء ، وصدوره عن نبى معروف قدره ، قال الله تعالى فى شأنه "ملة أبيكم إبراهيم" ، وتعلق ذلك بالهجرة إلى البيت الحرام ذى الشأن المعروف ، وشمول الدعاء نفسَه وذريته ليستمر فى الأزمنة الممتدة والأجيال المتعاقبة ، فضلا - عما سلف ذكره – من الاتجاه بالدعاء إلى ذكر الصلاة خاصة وإقامتها على هذا النحو ، والانتقال من خصوص الدعاء لذريته إلى الدعاء المطلق – من أجل إقامة الصلاة على ذلك النحو عند بيت الله الحرام – فى قوله (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) ، فى إشارة إلى كون ذلك متصلا بنفس الغاية ، وهى إقامة الصلاة فى بيت الله الحرام ، وهو يتضمن جانباً بلاغياً بارزاً لا يتوقف على مجرد التعميم فى لفظ الناس ، بل يتجاوز ذلك إلى التعبير عنهم – مجازاً – بقوله "أفئدة" "من الناس" ، فالأفئدة لها خصوصية فى تعلقها بالصلاة ، فهى موضع الإخلاص ، والاتجاه إلى الله – تعالى – حين تعمر بالإيمان ، وحب عبادة الله والصلاة له ، وهذا الجمع "أفئدة" يناسب عموم الدعوة ، ويناسب صلاة الجماعة عند بيت الله الحرام ، وناسب جميع ذلك قوله : "تهوى إليهم " دون سواه ؛ فلم يقل "تأتى" ولا "تفد" ولا "تسرع" ، وذلك لتضمّن قوله : "تهوى" وصفاً متعلقا بالقلوب حرصاً وسعياً ومبادرة وتنافساً وغير ذلك مما يتصل بالإخلاص الذى هو منطلق إقامة الصلاة التى دار عليها هذا الدعاء الكريم ، الذى ختمه – عليه السلام - بطلب الإجابة من الله تعالى فى قوله : (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء).

---

(١) فى رحاب البيان القرآنى "سورة إبراهيم" : محمد السعدى فرهود : ٧٦ ، ٨٧.

القسم السادس

تتجه الدراسة هنا إلى تتبع أساليب النظم القرآنى فى إطار بيان شأن الصلاة ببيان شأن ما يتعلق بها من أوقات ، وأماكن ، وتلاوة وذكر لله ، وأحوال المصلين المتعلقة بالصلاة، ثم ما يتعلق بها من آثار فى النفس وما يتصل بذلك من ذكر الصفات النفسية للمصلين وما يجب منها ، وذكر الألفاظ المجسِّدة لمعانى المجاهدة فى سبيل ذلك كلفظ "يمسِّكون" ولفظ "يدرءون"، ودراسة علاقة ذلك بما ورد من الترهيب ، والترغيب ، وغيرهما.

وورد ذلك متضمناً دراسة الجوانب الآتية :

***بيان شأن الصلاة من خلال العناية ببيان شأن ما يتعلق بها "دراسة تحليلية بلاغية" لما يأتى:**

أولاً : العناية ببيان شأن أوقات الصلاة وما يتعلق بها من ذكر الله تعالى :

- فضل الصلاة "طرفى النهار وزلفاً من الليل" ودلالة كلمة "زُلفاً".
- دلالة قوله تعالى : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا...) الآية.
- بيان شأن الأوقات باقترانها بذكر الأماكن على وجه العموم.
- تمييز شأن بعض الأوقات وما فيها من الصلاة على ما ذكرت فى إطاره بخصوصية زائدة.

ثانياً: العناية بشأن الأماكن التى تقام فيها الصلاة "وتتبع مظاهرها بالتحليل البلاغى".

ثالثاً : بيان شأن الصلاة ببيان كيفية ما تشتمل عليه من القراءة ودلالة النهى وغيره فى إيضاحه.

رابعاً:العناية بشأن بيان أحوال المصلين المتعلقة بالصلاة ودورها فى بيان شأن الصلاة وشأنهم:

- إقامة الصلاة وما يكمن فيها من القدرة النفسية وبيانها بلاغيا.
- لفظ "يمسكون" في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...) ودلالته.
- اقتران الأمر "بالصبر" بأسلوب "العطف" ودلالتهما على بيان الفضل والتتابع الزمنى غير المنقطع.
- التعبير الاستعارى بلفظ "يدرءون" ودلالته على القوة النفسية المتعلقة بإقامة الصلاة وآثارها.
- اقتران القوة النفسية اللازمة للعبادة والصلاة خاصة بذكر القيامة وأهوالها.
- اقتران القدرة النفسية على إقامة الصلاة بصفة الخشوع فى المصلين والثقل على من سواهم.
- فضل أسلوب الاستثناء والحذف إيجازاً فى بيان معانى الخشوع والثقل هنا.
- دلالة التعبير باسم الفاعل "ملاقو" لا بفعله فى قوله تعالى : (ملاقو رَبِّهِمْ).

بيان شأن الصلاة من خلال العناية ببيان شأن ((ما يتعلق بها)) :

أولاً : العناية بشأن "أوقات الصلاة" وما يتعلق بها من ذكر الله تعالى:

عنى الأسلوب القرآنى الكريم ببيان شأن الصلاة من خلال العناية بجميع ما يتعلق بها ، ومن بين ذلك احتل ذكر الأوقات مكاناً مميزاً يشير إلى شأن الصلاة وذكر الله فيها وما يترتب على ذلك فى سياق تعليلي يزيد بيان الشأن ظهورًا.

فضل الصلاة "طرفى النهار وزلفا من الليل" ودلالة كلمة "زُلَفًا" :

قال الله تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)[1].

فإقامة الصلاة على وجهها المطلوب من "أدائها على تمامها والمداومة عليها"[2] ، اتخذت بيانا لشأنها - هنا - في اقترانها بذكر هذه الأوقات المخصوصة التي تشعر بأن الصلاة فيها خاصة لها فضل تميز، مما يؤكده ذكرها في مواضع أخرى كما سيرد بيانه.

والإشارة إلى الأوقات هنا جاءت في قوله تعالى : (طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ).

فقوله تعالى "طرفي" ظرف لأقم ، وكونه ظرفا لأقم خاصة يشير إلى بيان شأن الإقامة في ذلك الوقت ، فيجتمع في ذلك فضل الصلاة بإقامتها ، وفضل الوقت الذي أقيمت فيه.

وإذا كان طرفا النهار "أوله وآخره ... والمراد بصلاة الطرفين: صلاة الصبح والعصر ..... أو صلاة الصبح والمغرب... "[3] ؛ فإن في الأمر بإقامة الصلاة فيهما إشارة واضحة إلى شأن هذه الصلاة وما ينبغي ألا يغفل عنه من هذا الشأن ، وما يتعلق به من أمور جامعة للخشية والخشوع وتدبر الآيات وإخلاص النية.

أما قوله تعالى : "وزلفاً من الليل" فسواء أكان معناها "المغرب والعشاء"[4] أو الصلاة عامة "في بعض الليل" [5] أو "مطلق ساعاته وآنائه وكل ساعاته زلفة"[6]، فإن في ذكر الزلف - خاصة - دون غيرها من الألفاظ الدالة على الليل وما يكون فيه من الصلوات دلالتها ذات الشأن هنا ؛ "فالزُّلْفَى القُربى والدرجة والمنزلة ... أزلف الشيء قرَّبه [ومنه قوله تعالى] : (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) ... والزُّلفة الطائفة من أول الليل ، وقيل هي ساعات الليل الآخذة من النهار وساعات النهار

---

(١) سورة هود : الآية ١١٤.
(٢) روح المعاني : الألوسي ١٢ : ٣٢.
(٣) روح المعاني : الألوسي : ١٢ : ٣٤٩.
(٤) نفسه ، وانظر : مفاتيح الغيب : الفخر الرازي : ٢ :١٥٨.
(٥) الكشاف : الزمخشري : ٢ : ٢٩٦ :
(٦) روح المعاني : الألوسي : ١٢ : ٣٢٦.

الآخذة من الليل ، واحدتها زُلفة ، ... ومعنى زلفا من الليل الصلاة القريبة من أول الليل ، ... وفي الحديث " ... فإذا زالت الشمس فازدلِف إلى الله بركعتين واخطب فيهما أى تقرَّب".[١]

فما تتضمنه لفظة "زلفا" من معاني القرب ، يجعلها تتعلق في ارتباطها بصلاة الليل ، واتصالها بإقامة الصلاة من خلال العطف على "طرفي النهار" بمعاني القرب من الله تعالى ، ولعل ذلك ما دعا الزمخشري إلى بيان دلالتها بقوله: (وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل)[٢].

ومما أظهر شأن الصلاة فيما ذكر هنا من أوقات النهار والليل قوله تعالى بعده : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ).

ولم يقل جل شأنه إن الصلوات ، فالتعبير بالحسنات "ما يعم الصلوات المفروضة وغيرها من الطاعات المفروضة وغيرها [كذلك] ، وقيل : المراد الفرائض فقط لرواية "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن" [٣].

أما ما تضمنه ذلك من قوله تعالى : "يذهبن" بمعنى "يُمحينها من صحائف الأعمال ... وقيل : يمنعن من اقترافها كقوله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)[٤] فدلالة الإذهاب على المحو أقوى بيانا في إزالة الأثر بما يتضمنه من تجسيد استعاري تبعي في الفعل المضارع.

واقتران إذهاب السيئات بإقام الصلوات وما ينشأ عنه من الحسنات المشار إليها اتخذ إطار الاستمرار والتجدد من خلال هذه الصيغة المضارعة في "يذهبن" وما تتعلق به من تجدد الصلوات مع تجدد الأوقات المشار إليها.

---

(١) لسان العرب : ابن منظور . مادة (زلف)
(٢) الكشاف : الزمخشري : ٢ : ٢٩٦.
(٣) روح المعاني : الألوسي : ١٢ : ٣٥٠.
(٤) نفسه

دلالة قوله تعالى : ((وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)): [١]

والأوقات المذكورة هنا (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ .... وَأَطْرَافَ النَّهَارِ).

فالأمر بالتسبيح ورد مرتين : إحداهما – وهى الأولى – مقترنا فيها بحمد الله أى : "صل ملتبسا "بحمد ربك" [أو] صل وأنت حامد لربك عز وجل على هدايته وتوفيقه سبحانه "قبل طلوع الشمس" أى صلاة الفجر "وقبل غروبها" ... أى صلاة الظهر والعصر ، والاستعمال الشائع فيه وقت العصر "[٢].

وفى المرة الثانية : ورد فعل الأمر "فسبح" متأخرا عما تعلق به وهو : (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ) ، وذكره على هذا الوجه يشير إلى دلالتين : فتقدم المتعلق هنا فيه عناية بشأن صلاة الليل وقد تردد مثل ذلك فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم.

وإعادة ذكر الفعل سبح هنا وعدم الاكتفاء بالفعل السابق "بأن يعطف""من آناء الليل" على أحد الظرفين السابقين من غير ذكر "فسبح" للاهتمام بشأن آناء الليل وامتيازها على سائر الأوقات بأمور خاصية وعامية" [٣].

ثم ورد ذكر أطراف النهار معطوفا على ما سبق وفى ذلك إعادة تنبيه على شأن "صلاتى الصبح والمغرب إيذانا باختصاصهما بمزيد مزية" [٤].

وبالعود إلى سياق هذه الآية نجد قول الله تعالى بعد ذلك : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)[٥] ، فيرد ذكر الصلاة مقترنا بقوله تعالى :(وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

---

(١) سورة طه : الآية ١٣٠.

(٢) روح المعانى : الألوسى : ١٦ : ٥٧٤.

(٣) السابق : ٥٨٩ .

(٤) نفسه .

(٥) سورة طه : ١٣٢.

مما حقق بيان شأن الصلاة فى هذا الأسلوب الذى تضمن ذكر الأوقات والتسبيح بحمد الله وإعادة ذكر التسبيح ثم النص على الصلاة والأمر بالاصطبار عليها وتعليل ذلك.

ففى قوله تعالى (وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) جمع لمعانى المحافظة والمداومة والمجاهدة الملازمة لهما "فالصبر مجاز مرسل عن المداومة لأنها لازم معناه. وفيه إشارة إلى أن العبادة فى رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس".(١)

بيان شأن الأوقات باقترانها بذكر الأماكن على وجه العموم:

قال الله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)(٢)

فاجتمعت هنا الإشارات إلى الزمن فى قوله تعالى: (حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ... وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) ، وتأكدت دلالات ما ذكر من فضل هذه الأوقات فى سياقات أخرى ، غير أن الدلالة الزمنية وردت فى صيغة الأفعال المضارعة "تمسون" ، "تصبحون" ، "تظهرون" ، وجاءت "عشيا" على نحو مختلف، وقيل فى سبب ذلك : "لما أنه لا يجىء منه الفعل ، بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ، ولعل السر فى ذلك ما قيل : إنه ليس من الأوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة... أما فى المساء والصباح فظاهر ، وأما فى الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرد من الثياب للقيلولة... هذا وفضل التسبيح والتحميد أظهر من أن يستدل عليه"(٣).

كما جاء المصدر "سبحان" على هذا النحو المذكر بنص القول حال التسبيح دون التصريح بلفظ الأمر ، وقيل إنه "منصوب بفعل أمر

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ١٦ : ٥٩٢.
(٢) سورة الروم : الآيتان ١٧ ، ١٨.
(٣) روح المعانى : الألوسى : ٢١ : ٣٠.

محذوف ... (أى) فسبحوا سبحان الله.... "حين تمسون" صلاة المغرب ، وحين تظهرون "صلاة الظهر"[١] وقيل غير ذلك.

وللتعبير بالمضارع دلالته على الاستمرار هنا والتجدد فى كل حين ، وبيان شأن تلك المداومة ، والاقتران بذكر الحمد فى السموات والأرض فيه دلالة شمول ذلك للأماكن مع الأزمنة دون تقييد.

تمييز شأن بعض الأوقات وما فيها من الصلاة على ما ذكرت فى إطاره بخصوصية زائدة :

وفى إطار ذكر الأوقات والعناية بشأنها – إبرازاً لشأن ما يكون فيها من الصلوات – ، يرد تمييز شأن بعض الأوقات بخصوصية زائدة عما سيقت فى إطاره، وذلك ببيان علته متضمّنة الثناء عليها ووجه تميزها.

من ذلك ما يرد فى قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)[٢].

فقد تضمن ذلك على أرجح الأقوال : "صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم قال: "وقرآن الفجر" أراد : صلاة الصبح" [٣].

واتضح عبر هذا فضل صلاة الفجر خاصة وفضل التلاوة فيها ، وقيل : "التعبير عن صلاة الفجر بخصوصها بما ذكر إشارة إلى أنه يُطلب فيها من تطويل القراءة ما لم يُطلب فى غيرها وهو حسن... : [وقال] : "إن قرآن الفجر" ولم يقل إنه "كان مشهوداً" لا يخفى ما فى

---

(١) السابق : ٢٨.

(٢) سورة الإسراء : الأيتان ٧٨ ، ٧٩ . دلكت الشمس غربت وقيل زالت فإذا كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس وإن كانت الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق الظلمة وهو وقت صلاة العشاء وقرآن الفجر صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القراءة لأنها ركن كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتا. مشهود : تشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء ، أو يشهده الكثير من المصلين أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة. الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٤٦٢.

(٣) مفاتيح الغيب : الفخر الرازى : ٢ : ١٥٧.

مما حقق بيان شأن الصلاة فى هذا الأسلوب الذى تضمن ذكر الأوقات والتسبيح بحمد الله وإعادة ذكر التسبيح ثم النص على الصلاة والأمر بالاصطبار عليها وتعليل ذلك.

ففى قوله تعالى (وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) جمع لمعانى المحافظة والمداومة والمجاهدة الملازمة لهما "فالصبر مجاز مرسل عن المداومة لأنها لازم معناه. وفيه إشارة إلى أن العبادة فى رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس" (١).

بيان شأن الأوقات باقترانها بذكر الأماكن على وجه العموم:

قال الله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تمْسُونَ وَحِينَ تصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تظْهِرُونَ) (٢)

فاجتمعت هنا الإشارات إلى الزمن فى قوله تعالى: (حِينَ تمْسُونَ وَحِينَ تصْبِحُونَ ... وَعَشِيًّا وَحِينَ تظْهِرُونَ) ، وتأكدت دلالات ما ذكر من فضل هذه الأوقات فى سياقات أخرى ، غير أن الدلالة الزمنية وردت فى صيغة الأفعال المضارعة "تمسون" ، "تصبحون" ، "تظهرون" ، وجاءت "عشيا" على نحو مختلف، وقيل فى سبب ذلك : "لما أنه لا يجيء منه الفعل ، بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ، ولعل السرّ فى ذلك ما قيل : إنه ليس من الأوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة... أما فى المساء والصباح فظاهر ، وأما فى الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرد من الثياب للقيلولة... هذا وفضل التسبيح والتحميد أظهر من أن يستدل عليه" (٣).

كما جاء المصدر "سبحان" على هذا النحو المذكر بنص القول حال التسبيح دون التصريح بلفظ الأمر ، وقيل إنه "منصوب بفعل أمر

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ١٦ : ٥٩٢.
(٢) سورة الروم : الآيتان ١٧ ، ١٨.
(٣) روح المعانى : الألوسى : ٢١ : ٣٠.

محذوف ... (أى) فسبحوا سبحان الله.... "حين تمسون" صلاة المغرب ، وحين تظهرون "صلاة الظهر "[1] وقيل غير ذلك.

وللتعبير بالمضارع دلالته على الاستمرار هنا والتجدد فى كل حين ، وبيان شأن تلك المداومة ، والاقتران بذكر الحمد فى السموات والأرض فيه دلالة شمول ذلك للأماكن مع الأزمنة دون تقييد.

تمييز شأن بعض الأوقات وما فيها من الصلاة على ما ذكرت فى إطاره بخصوصية زائدة :

وفى إطار ذكر الأوقات والعناية بشأنها – إبرازاً لشأن ما يكون فيها من الصلوات – ، يرد تمييز شأن بعض الأوقات بخصوصية زائدة عما سيقت فى إطاره، وذلك ببيان علته متضمّنة الثناء عليها ووجه تميزها.

من ذلك ما يرد فى قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)[2].

فقد تضمن ذلك على أرجح الأقوال : "صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم قال: "وقرآن الفجر" أراد : صلاة الصبح" [3].

واتضح عبر هذا فضل صلاة الفجر خاصة وفضل التلاوة فيها ، وقيل : "التعبير عن صلاة الفجر بخصوصها بما ذكر إشارة إلى أنه يُطلب فيها من تطويل القراءة ما لم يُطلب فى غيرها وهو حسن... : [وقال] : "إن قرآن الفجر" ولم يقل إنه "كان مشهوداً" لا يخفى ما فى

---

(١) السابق : ٢٨.

(٢) سورة الإسراء : الآيتان ٧٨ ، ٧٩ . دلكت الشمس غربت وقيل زالت فإذا كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس وإن كانت الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق الظلمة وهو وقت صلاة العشاء وقرآن الفجر صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القراءة لأنها ركن كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتا. مشهود : تشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء ، أو يشهده الكثير من المصلين أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة. الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٤٦٢.

(٣) مفاتيح الغيب : الفخر الرازى : ٢ : ١٥٧.

هذه الجملة من الترغيب والحث على الاعتناء بأمر صلاة الفجر "[١]، لما فى ذلك من إعادة إظهار لفظه فى موضع الإضمار. لذلك قيل : إن معنى قوله : "وقرآن الفجر" وعليك قرآن الفجر.[٢]

إن الصلاة استغرقت هنا جميع الأوقات ثم انتقلت بعد بيان شأن الفجر وما فيه من الصلاة والقرآن ، إلى التهجد مبينة شأنه كذلك ومعللة ذلك الشأن فى قوله تعالى : (عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) ، وقدم المتعلق " ومن الليل" على فعله "فتهجد" بيانا لذلك الشأن كما هو الحال فى مواضع كثيرة بالقرآن الكريم مما سلف بيانه.

ثانياً : العناية بشأن الأماكن التى تقام فيها الصلاة :

أظهر القرآن الكريم شأن الأماكن التى تقام فيها الصلاة ويعبد فيها الله تعالى، إظهارا له دلالته على العناية بشأن الصلاة وما تتصل به من العبادات ، فورد التعبير القرآنى الكريم زاخرا بدلالات ذلك.

قال الله تعالى موجها النداء إلى بنى آدم عامة : (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ)[٣] أى أن "يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة"[٤].

وقال تعالى مبيناً تعظيم شأن المساجد وكونها للعبادة الخالصة لله وحده (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)[٥] ، فورد النهى فى (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) متعلقا بتعظيم هذا الشأن أى "ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً"[٦].

واقترن ذكر المساجد بالتسبيح وذكر اسم الله ورفعة الشأن والثناء على عمّارها بالكناية الدالة على ذلك فقال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ

(١) روح المعانى : الألوسى : ١٥ : ١٢٩.
(٢) معانى القرآن : الأخفش الأوسط : ٢ : ٣٩٢.
(٣) سورة الأعراف : الآية ٣١.
(٤) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٦٥، وفى ذلك أقوال أخرى عديدة.
(٥) سورة الجن : الآية ١٨ .
(٦) الكشاف : الزمخشرى : ٤ : ١٧٠.

تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)(١).

فتجسيد رفعة الشأن بقوله تعالى "أن تُرفع" بيان لسموها باستعارة تبعية دالة، والتعبير بالمضارع "ويذكر فيها اسمه" مبنيا للمجهول دلالة على الاستمرار والتجدد، فضلا عن بيان شأن ذكر اسم الله بعد حذف الفاعل وجعله في موضعه نائبا عنه ، وذكر التسبيح بعد الفعل "يذكر" بيان آخر لفضل هذا الذكر الخاص بعد العام متصلا بقوله "بالغدو والآصال" اتصالا زمنيا مستمرا بصيغة الجمع الدالة عليه، وتعظيم شأن هؤلاء الذاكرين الله على هذا النحو بتنكير لفظ "رجال" له مكانه من التميز المتعلق بهذا السياق ، أما الكناية المتصلة بالثناء عليهم في قوله : (لا تلهيهمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ) فقد دلت على إخلاص العبادة بتجردها عن كل مُلهٍ ؛ فقد "خص البيع لأنه أدخل من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طِلبته الكلية من صناعته ألهته مالا يلهيه شراء شيء يتوقع فيه الربح".(٢)

واقترن ذكر أماكن الصلاة بذكر الأنبياء وبالأمر بإقامة الصلاة، والتسبيح، قال تعالى في شأن زكريا عليه السلام: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (٣) ، "والمراد بالتسبيح الصلاة مجازا بعلاقة الاشتمال... ، وخص التسبيح هنا بالذكر لأن كل من رأى أمرا عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول: سبحان الله..." (٤) ، واتصل ذكر المحراب هنا بدعاء زكريا – عليه السلام – وتبشير الله إياه ، وبنداء الملائكة ، وبصلاته في المحراب ، قال تعالى : (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى).

واقترن ذكر المسجد الحرام والمسجد الأقصى بإسراء النبي ﷺ

---

(١) سورة النور : الآيتان : ٣٦ ، ٣٧.
(٢) الكشاف : الزمخشري : ٣ : ٦٨.
(٣) سورة مريم : الآية ١٠.
(٤) روح المعاني : الألوسي : ١٦ : ٣٩٠ ، ٣٩١.

فى إشارة دالة على عظم شأنهما فقال تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) (١).

وتتابعت الصيغ اللغوية المتصلة بمعنى استمرار أعمال الطواف والركوع والسجود والاعتكاف فى المسجد الحرام ، وكثرت دلالات تعظيم شأنه بجعله قبلة المسلمين فى الصلاة وكونه أول بيت وضع للناس ، والأمر بالحج والعمرة فيه وكونه "مباركا" ، وغير ذلك مما كثر ذكره فى القرآن الكريم.

ومما ورد فيه ذكر الصلاة بالتعبير عنها بالقيام والركوع والسجود ، قوله تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)(٢).

فالأمر بتطهيره "يشمل الطهارة الحسية والمعنوية أى وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى عنده ... ولم يعطف السجود لأنه من جنس الركوع فى الخضوع" (٣).

وقال تعالى ذاكراً المساجد والمعابد بوجه عام فى إطار أسلوب الشرط بـ"لولا" (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...) (٤) ، والتعبير بـ "لولا" هنا له دلالته على ثبوت ما بعدها من جملة الشرط وتأكيده بحذف خبره وجوبا وهو المقدّر بلفظة "موجود" ، وبتأكيد جوابه باللام.

ثالثاً : بيان شأن الصلاة ببيان كيفية ما تشتمل عليه من القراءة :

تولى النظم القرآني الكريم بيان كيفية القراءة فى الصلاة ، فحدد ذلك بوضوح فى أسلوب واضح الأقسام فقال تعالى : (وَلاَ تَجْهَرْ

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ١.

(٢) سورة الحج : الآية ٢٦.

(٣) روح المعانى : الألوسى : ١٧ : ١٢٥.

(٤) سورة الحج : الآية ٤٠ . صلوات : جمع صلاة وهى كنيسة اليهود ، وقيل : معبد النصارى ، وقيل : الصوامع للرهبان والبيع للنصارى والصلوات لليهود والمساجد للمسلمين . انظر : روح المعانى: الألوسى : ١٧ : ١٤٠.

بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)[١].

فالنهى عن الجهر والنهى عن المخافتة على هذا النحو، واتصالهما بالواو العاطفة وضّحا وجه القراءة المأمور به، فجاءت صيغة الأمر محددة الدلالة على هذه الكيفية فى قوله تعالى:(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)، كما عنى النظم القرآنى بوجوب التمهل فى القراءة فى قوله عز وجل:(وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلا)[٢] كما سبق بيانه.

رابعاً : العناية بأحوال المصلين المتعلقة بالصلاة ودورها فى بيان شأن الصلاة وشأنهم:

اتضح فى النظم القرآنى العظيم العناية بشأن النفس البشرية التى كُلفت بالعبادات وعلى رأسها الصلاة، فأخذ بيدها يعالج ما قد تجده فى سبيل ذلك من مشقة موضحا ما تستعين به عليها من الصبر والمجاهدة "وقد اقترن "الصبر" فى نظائر القرآن بذكر العبادات والفرائض ومحاسن الصفات، ويقولون إن ذلك لمشقة الفريضة على النفوس ؛ إذ هى فريضة الدأب والمثابرة فى كل الآماد قصيرها وطويلها. ومثل هذا الاقتران جاء مجملا فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) وفى قوله : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ). ثم جاء الاقتران مفصلا فى الصلوات الخمس كلها وذلك حين يقول سبحانه : (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)، وحين يقول : (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ)[٣].

إقامة الصلاة وما يكمن فيها من القدرة النفسية على مواجهة ضيق الصدور :

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ١١٠.
(٢) سورة المزمل : من الآية ٤. أى : اقرأه على تؤدة وتمهّل وتبيين حروف ترتيلا بليغا بحيث يتمكن السامع من عدّها فإن ذلك موجب لتدبره "انظر : ١١١ من هذا البحث وما قبلها.
(٣) من الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم : عبدالعزيز سيد الأهل : ١٤٢. القاهرة. ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

والأمر بالصبر – فى اقترانه – بالتسبيح والسجود والصلاة عامة، جاء واضح الدلالة فى أساليب تعالج أحوال النفس البشرية وتهديها إلى ما تستمد منه قوتها على ما أمرت به من تكاليف العبادة، فاقترن فى ذلك بما يعتريها من الأحوال التى تسبب لها التوتر.

وقد يرد ما يتعلق بالصبر والاستعانة بالصلاة دون تصريح بالنص على "الصبر" فيتضح الأمر به من خلال السياق.

من ذلك ما جاء فيه الأمر بالتسبيح والسجود مقترنا بذكر ضيق الصدر مما تكلم به المستهزئون فى شأن النبى ﷺ اقتران السبب بالمسبب فى قوله تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)[١] إشارة إلى ما ورد فى نفس السورة من قوله تعالى : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)[٢].

فما صدر عنهم من هذا القول سَبَب فى ضيق صدره ﷺ، وذلك الضيق مما قيل وردت معالجته بما يزود النفس بالقدرة على دفعه ومواجهته بقوة صبر مستمدة من التسبيح والسجود، فـ "فى الآية دليل على أن التسبيح والعبادة سبب النجاة من ضيق الصدر والكرب"[٣].

لفظ "يمسّكون" فى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ) :

كما قد لا يرد التصريح بلفظ الصبر أو قوة المجاهدة وما إليهما، استغناء عنه بلفظة دالة على قوة بلوغ ذلك واستمراره فى النفس، مقترنا بما يلائمه من جوانب عملية تدعمه بالقوة على الاستمرار فى جانب "إقامة الصلاة".

ومن ذلك لفظ "يمسّكون" فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ

---

(١) سورة الحجر : الآيات ٩٧ : ٩٩.

(٢) سورة الحجر : الآيتان : ٦ ، ٧.

(٣) ضياء التأويل فى معانى التنزيل : فوديى بن عثمان : ٢١٧ .

بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)(١).

فإقامة الصلاة هى الجانب العملى المقترن بما دل عليه الفعل "يمسّكون" وما يشير إليه من محاولات التمسك المستمرة والمتجددة فى الأزمان المتتالية والمقترنة بالمجاهدة من أجل هذا الاستمرار.

ذلك أن "مسَّك" بمعنى "احتبس"(٢) ، "وتمسكت (بالشىء) واستمسكت به وامتسكت كله بمعنى اعتصمت ، وكذلك مسَّكت به تمسيكا" (٣).

وحين اجتمعت دلالة هذا الفعل على المجاهدة النفسية المتجددة مع إقامة الصلاة ، ورد الثناء عليهم بلفظ "المصلحين" ، وحثهم بهذا الثناء مع ذكر الأجر فى قوله تعالى : (إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ).

تمييز شأن الصلاة ووسائله البلاغية فى هذه الآية :

واتخذت العناية ببيان فضل اقتران الفعل "يمسّكون" بإقامة الصلاة وأثر ذلك فى المداومة عليه مظهرين بلاغيين واضحين:

الأول : هو التعبير عن إقامة الصلاة بصيغة الفعل الماضى الدال على تحقق حدوث دلالته فى أصحابها ، والتعبير عن الاستمساك بالكتاب بالفعل المضارع "يمسّكون" الدال بصيغته المضارعة على الاستمرار والتجدد والمعاودة والمجاهدة فى كل حال.

والثانى : هو عطف أقاموا الصلاة على "يمسكون بالكتاب" عطفا للخاص على العام ، "فالتمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ومنها إقامة الصلاة ... إظهارا لمزية الصلاة لكونها عماد الدين وفارقة بين الكفر والإيمان"(٤).

اقتران الأمر بالصبر ، بأسلوب العطف الدال على فضل وتنوع أعمال الصلاة وتتابعها الزمنى غير المنقطع:

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٠.
(٢) لسان العرب : ابن منظور : مادة : (مسك) .
(٣) السابق : مادة (مسك) .
(٤) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ١٢٨.

وورد النص على لفظ "الصبر" أمرا للنبى ﷺ ، والنص كذلك على ما اقتضاه وسبَّبه فى قوله تعالى : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا)(١).

ثم عُطف على الأمر والنهى هنا قوله تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا)(٢).

وقدم - سبحانه - "ومن الليل" على ما تعلق به من الفعل "فاسجد" بيانا لفضل صلاة الليل ، وعبر بالسجود لخصوصيته وفضله كذلك وما يشير إليه من القرب - كما هو معلوم - ، ولا تخفى دلالة الوصف بقوله "طويلاً" فى شأن الليل بقوله : (وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا) ، ودلالة جميع ذلك فى ارتباطه بما يدل على الإطالة والكثرة والاستمرار الواضح فى قوله تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا) مع تنوع التعبير فى "واذكر ، فاسجد ، وسبحه".

وفى جميع ذلك إشارة واضحة إلى معانى التوسل بهذه العبادات لتقوية النفس على المشاق التى نشأ عنها الأمر بالصبر فى قوله : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) وإلى تنوع هذه المشاق المشار إليها بالعطف بعد النهى فى قوله تعالى : (وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا).

التعبير الاستعارى فى لفظ "يدرءون" ودلالته على القوة النفسية المتعلقة بإقامة الصلاة فى هذا المجال :

وورد التعبير عن مظاهر القوة النفسية المستمدة مما يدعمها ويثبتها فى النفس من إقامة الصلاة ، بأسلوب يتضح فيه التلازم بين إقامة الصلاة ومظاهر هذه القوة النفسية وما تدل عليه هذه المظاهر من جوانب عملية متعددة ، وتنطلق منه من صدق المقصد " ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ " ، وذلك فى قوله الله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ

(١) سورة الإنسان : الآية ٢٤.

(٢) سورة الإنسان : الآيتان ٢٥ ، ٢٦.

السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)[1].

فالصبر المذكور " ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ " قوة نفسية لها مظهران عمليان معطوفان عليها : " وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً " ، وجميع ذلك فى تعبير دال – بصيغة الماضى – على تحقق ذلك فى نفوس أصحابه وخُلقهم، أما ما يضمن استمراره فيما يجدّ من الظروف التى يكرهونها مما يتطلب دفعا له ومقاومة فقد عطف على ذلك بصيغة المضارع فى (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) ، وهذا "الدرء" الظاهر فى صورة حسية استعارية لمعنى الدفع يتطلب قدرة متميزة عليه، فهى ليست مجرد صبر على الإساءة ، بل دفع لها بالحسنة.

فالمادة اللغوية للفعل "يدرءون" تدور حول معانى الدفع لما يكره ويصعب من الأمور ؛ فمنه "تدارأتم أى اختلفتم وتدافعتم ... ودارأته مدارأة وداريته إذا اتقيته ولاينته ، فمعناه الاتقاء لشره ، ... ودرأته عنى أدرؤه دَرْءا : دفعته... وفى الحديث : "اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم" أى أدفع بك لتكفينى أمرهم... قال ابن الأثير : ذُو تدْرَإ أى ذو هجوم لا يَتوقى ولا يَهاب ؛ ففيه قوة على دفع أعدائه"[2] ، كما أنها تتصل بعنصر المفاجأة وقوة الداعى إليها مما تكرهه النفس "يقال درأ علينا دُروءا إذا خرج مفاجأة ، ... وإذا طلع من حيث لا ندرى ، واندرأ علينا بشرّ ... ودرأ الوادى بالسيل دفع ... (و) يقال للسيل إذا أتاك من حيث لا تحتسبه: سيل دَرْء أى يدفع هذا وذاك وهذا ... ودرأ فلان علينا أى هجم.. "[3].

والآية توضح معنى المغالبة وشدة دفع السيئة ، لا بما يقتضيها من دواعيها ولكن بما يضادها ، فالدفع لها بالحسنة ليس أمراً مألوفاً ناشئاً عنها بل مضادا لمقتضاها ، ولمقتضى الحال الذى تولد عنها فى النفس ، فهم : "يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم ، وعن الحسن: إذا حُرموا أعطوْا ، وإذا ظُلموا عفوْا ، وإذا قطعوا وصلوا ،

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٢.
(٢) لسان العرب : ابن منظور : مادة (درأ).
(٣) السابق : مادة (درأ) .

وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا"(١).

اقتران القوة النفسية اللازمة للعبادة والصلاة بذكر "القيامة وتذكر أهوالها" :

ويرد الأمر بالصبر "على ما يقولون" ، والتسبيح – مكررا (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ... وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) مقترنا بذكر الاستماع إلى صيحة القيامة ، لتكون تلك الحال داعية النفس إلى استحضار معانى القوة فى صورتها المتميزة ، وذلك فى قوله تعالى: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ* يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)(٢).

وهنا يتأكد ما تردد ذكره فى آيات كثيرة من اقتران الصبر بالتسبيح فى هذه الأوقات المخصوصة بفضل الذكر فيها ، ويتقدم ذكر الليل على قوله : "فسبحه" بيانا لخصوصية زائدة فيه ، ثم يرد ذكر السجود وما بعده بيانا لما فيه من قرب الساجد ، واتصالا لزمن الذكر بعد القرب المذكور بما كان قبله.

واقتران جميع ذلك باستحضار هول القيامة والصيحة بقوله تعالى: (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) ، فيه قوة استحضار هذا الهول فى الأذهان والأنفس بالأمر "استمع" ، و"من مكان قريب" ، وإعادة الذكر بوضع المظهر "الصيحة" فى موضع الإضمار وإعادة "يسمعون" بعد "واستمع" فضلاً عن إعادة ذكر اليوم مظهرا فى موضع إضماره ، وجمع ذلك بالإشارة الدالة على شدة الهول وبُعد الشأن والتعيين بالعلمية فى : "ذلك يوم الخروج".

فما تلقاه النفس من اليقين هنا يلازم ما تتطلبه من القوة على ما أمرت به فى سياقه.

ومما ورد فيه ذلك فى سياق بعض مشاهد القيامة وأهوالها من خلال أسلوب الحوار ومشاهد العذاب وسياق الاستفهام قول الله تعالى : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ

---

(١) الكشاف : الزمخشرى : ٢ : ٣٥٧ ، ٣٥٨.
(٢) سورة ق : الآيات ٣٩ : ٤٢ . وأدبار السجود : أى : وأعقاب الصلاة.

* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)(١).

وفى ذلك من الترهيب ما يدل عليه اقتران ذكر "سقر" بكونهم لم يكونوا من المصلين فى هذا التجاور، فهذا الخبر المتصدر مجموعة الأسباب المذكورة، له دلالته على شأن ترك الصلاة وأثرها فى تلك العاقبة.

وذلك فضلا عن اقترانه بذكر عدم إطعام المسكين، والخوض مع الخائضين، والتكذيب بيوم الدين، وهو سياق يؤكده ما ورد فى سورة الماعون من قوله تعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) (٢).

وفى ذلك ما فيه من الترهيب والزجر المؤثرين فى النفوس باستحضار المشهد وعناصر الحوار، وبيان نص ما اشتمل عليه كلام الفريقين.

اقتران القدرة النفسية على إقامة الصلاة بصفة الخشوع فى المصلين والثِّقَل على من سواهم:

واقترن ذكر إقامة الصلاة بصفة نفسية جامعة للكثير من الأسس التى تكفل المداومة عليها، وهى صفة "الخشوع"، مقابل وصف الصلاة نفسها بالثقل على النفوس المتجردة من هذا "الخشوع"، وذلك فى قوله تعالى: (وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)(٣).

فضل أسلوب الاستثناء والحذف إيجازا فى بيان معانى الخشوع والثقل المذكورين هنا:

وقد اتضحت العناية بشأن النفس فى مواجهة ما تكره بتزويدها

---

(١) سورة المدثر: الآيات ٤٢ : ٤٧.

(٢) سورة الماعون.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٤٥، ٤٦. الخشوع: الهيبة فى النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع، وكبيرة: ثقيلة، ومعنى ثقلها: صعوبتها على من يفعلها، على حد قوله تعالى: (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) [الشورى :١٣] انظر: روح المعانى : ١ : ٢٥٠.

بما نستعين به فى قوله تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) ، فالصلاة هنا مستعان بها هى والصبر ، وقدم الصبر عليها فـ "الصلاة لا تتم إلا به" [١] ، والمستعان عليه محذوف لإفادة الإطلاق والشمول ، كما أن "الاستثناء مفرغ أى كبيرة على كل احد إلا على الخاشعين ، وهم المتواضعون المستكينون" [٢] ... فهو مفيد الإطلاق كذلك، وتمييز هؤلاء الخاشعين – فى اتصافهم بصفة الخشوع النفسية التى تظهر فى أخلاقهم وأفعالهم – على كل من سواهم ، "وإنما لم تثقل عليهم لأنهم عارفون بما يحصل لهم فيها ، متوقعون ما ادخر من ثوابها ، فتهون عليهم" [٣].

دلالة الإضافة والتعبير باسم الفاعل "ملاقون" لا بفعله ، فى قوله تعالى : "ملاقو ربهم" :

أما وصف هؤلاء الخاشعين بقوله تعالى : (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ففيه قوة الدلالة على تمكن اليقين بلقاء الله من نفوسهم ، وكأنه قد حدث بالفعل ؛ وذلك ما يشير إليه استخدام اسم الفاعل الدال على الثبوت بإسميته والإضافة إلى "ربهم" وعدم استخدام فعله.[٤] وفى ذلك اجتمع الإرشاد بالأمر إلى ما تتزود به النفس من الاستعانة المذكورة ، وإلى تمييز القادرين على ذلك عن سواهم ، وإلى الصفات النفسية المتعلقة باليقين والصادرة عنه فى نفوسهم.

وهذا ما يؤكده النظم القرآنى العظيم فى آيات أخرى كقوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)[٥] ، وقوله تعالى : (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ) [٦] ، وقوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ) [٧] مما سبق بيانه.

---

(١) روح المعانى : الألوسى : ١ : ٢٥٠ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) يوضح الأخفش ذلك بقوله : وإنما يضاف إذا كان قد وقع الفعل ، تقول : هم ضاربو أبيك ، إذا كان قد ضربوه ، وإذا كانوا فى حال الضرب ، أو لم يضربوا ... ومثل " كل نفس ذائقة الموت" ولم تذق بعد. معانى القرآن : الأخفش الأوسط : ١ : ٨٣.

(٥) سورة "المؤمنون" : الآيتان ١ ، ٢.

(٦) و (٦) سورة الأعلى : الآية ١٠ ، والآيتان : ١٤، ١٥.

خاتمة البحث وأهم نتائجه

اتضح فى هذه الدراسة كون الأسلوب القرآنى المعجز متجها إلى فريضة الصلاة – التى هى عماد الدين – بالعناية الأسلوبية الخاصة التى دعمت بيان شأنها فى كل جانب تناولها فيه.

ففى تسميتها بالصلاة ، اتضح جانب كبير من ذلك الشأن بما تدور حوله "الصلاة" من مادة لغوية تتعلق بالتقويم ، وتعديل الأركان ، والملازمة ، والعناية بالشأن ، وكذلك بالثناء والمدح والتعظيم ، والدعاء والرحمة والعبادة.

وكذلك ما تعلقت به هذه التسمية فى جانبها البلاغى ، من استعمال مجازى مشير إلى معنى : "مطلق الطاعة" حيث تسميتها "إيمانا" فى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أو تسميتها بما يكون فيها من أعمال : القيام ، والركوع ، والسجود ، والتلاوة ، والتسبيح ، وذكر اسم الله تعالى ، والاستغفار.

وفى اقترانها بلفظ الإقامة اتضح جانب كبير كذلك من العناية بإظهار شأن الصلاة ، فالإقامة مأخوذة من : أقمت الشىء إذا وفّيْت حقه ، ومن: تعديل أركانها، والمواظبة والمداومة عليها ، وحفظها من أن يقع فيها زيغ ، ومن إقامة العود، ومن: قامت السوق إذا راجت تجارته أو نفقت ، وما تضمنه ذلك من توجه الرغبات إليها ، والتجرّد والتشمّر لأدائها ، وأن لا يكون فيها فتور ولا توان من: قام بالأمر خير قيام إذا أتى به على وجهه المطلوب واجتهد فى ذلك.

واتضح فى السياق القرآنى بيان شأن الصلاة باقترانها بذكر سجود جميع الخلائق لله تعالى ، ووردت العناصر البلاغية الدالة فى ذلك ، مثل: الاستفهام المقترن بفعل الرؤية مسبوقا بالنفى أو مجردا منه ، ومثل إيراد الوصف الموجب لذلك السجود.

كما اتضح عظيم شأنها باقترانها بألفاظ جامعة للمعانى والآثار كالميثاق والبر والتقوى ، وذكر الأنبياء ورسالاتهم. واتخذ أسلوب "القصر" فى بيان ذلك الشان دلالاته ، فى جمع دال لأسس الإيمان وبيان

ما يخالفها من أسس وصفات، مخرجا ذلك مخرج التقابل بين ما أكده وما عرّض به. ونظرا لتعدد مجالاته ودلالاته فى هذا المجال وقوة أدائه للمعانى جاء فى موضع الصدارة بين الأساليب البلاغية هنا وجاءت "إنما" فى ذلك مقترنة بما يلائم المقام من علم المخاطبين بما سيقت لبيانه من جوانب: الإيمان ، والعقيدة وما يتعلق بهما إثباتا فى جانب وتعريضا وذما فى جانب مقابل ، ووردت فى ذلك صفات : الإيمان ، والإنذار ، والتزكى ، والتطهر ، وتعمير المساجد ، وخشية الله تعالى وما إليها.

أما طريق "النفى مع الاستثناء" ؛ فنظرا لأن أصل استخدامه يكون فيما يجهله المخاطب وينكره ، فقد ورد ملائما بيان الأمور الغيبية ، كأسباب عدم قبول الله تعالى "الإنفاق" ممن انطوت صدورهم على الكفر ، واستثقال الصلاة ، والكسل حال أدائها ومراءاة الناس وكراهة الإنفاق.

وورد أسلوب "القصر بالتقديم" مبينا شأن الصلاة والعبادة عامة فى أكثر من مجال.

واتضح "دور القسم" – فى ارتباطه بدلالات التعظيم وتهويل الشأن وخطره – فى إطار داع إلى تدبر المقسم به من الآيات ، وما تنطوى عليه من مظاهر القدرة، وتتصل به من هول المقسم عليه وعظيم شأنه.

واستوعب "أسلوب الشرط" الكثير من المجالات ، والأساليب البلاغية، فورد فى البحث فى كل موضع اقتضاه ؛ فورد فى إطار القسم والقصر ، والعطف، وتعدد الوصف ، وأظهر شأن الاستعداد للصلاة والقيام إليها بالوضوء أو التطهر أو التيمم ، وكيفية صلاة الخوف وشأنها كذلك ، ووجوبها فى إطار ما يلابسها من أحوال .

كما ورد فى "أسلوب الكناية" مشيرا إلى دلائل ما تعلقت به من وصف وشرط، كالكناية عن صفات الخشوع بالتجافى عن المضاجع ، وبالسجود حين سماع ذكر آيات الله ، وصفات الإعراض والاستكبار عن الركوع والصلاة.

وورد فى إطار "الاستفهام الإنكارى" -خاصة- توبيخا للمعرضين وتعجيبا منهم.

وورد "الشرط فى إطار النداء" تنبيها لشأن الصلاة عامة وما يجب لها من أمور، وفى إطار "التقديم والتأخير" تمييزاً لذلك الشأن ، وفى إطار "التعريف بالموصولية" المقترنة بوصف فى صلتها مقترن بالشرط والعطف بيانا لاستحقاق الموصوفين بما فى إطارها من الحكم.

أما "أساليب الالتفات" فقد حققت الكثير من غايات بيان شأن الصلاة وما قامت عليه من أسس جامعة للدين والتوحيد ، والتقوى ، فى إطار غيرها من الأساليب كالقصر عن طريق التقديم.

ومع قلة "أساليب التشبيه" أو ندرته فى مجال بيان شأن الصلاة إلا أن الأسلوب القرآنى اتخذ منه وسيلة لبيان ذلك الشأن ، فى إطار جامع لجوانب الصلاة الحسية الظاهرة فى الهيئة المرئية للمصلين سجودا وركوعا ، والقوة المعنوية المتعلقة بالإيمان والعقيدة ، والأثر النفسى الذى تتركه فى نفوس المؤمنين اطمئنانا وإعجابا ، والكافرين تبرما وغيظا فى إطار المقابلة والكناية الدالة.

وكذلك "الاستعارة الجامعة" التى وردت مجسدة معنى رجاء الثواب وكونه محققاً عند الله تعالى تجسيدا لذلك الجانب المعنوى فى نفوس المصلين ، فاتخذت لفظ التجارة بيانا لذلك ، واتخذت من ترشيحه بيانا لكونه مؤكدا بعدم "البوار" ، مشيرا إلى ما تحرص عليه النفوس من الربح ، وخشية الكساد ، وشأن تفضيل الصلاة على ما يشغل عنها ، والحث على ذلك بالثناء على أصحابه.

واتخذت "دلالات الأفعال" فى جميع ذلك مجالاتها للظهور مؤكدة شأن الصلاة وما يرتبط بها من معانى المواظبة والاستمرار والتجدد ، فى صيغتها المضارعة، والمضى وتحقق الحدوث فى صيغة الماضى ، والأمر الدال على الوجوب والإلزام المناسب لكونها فرضا يشكل عماد الدين وأساسه فى أسلوب الأمر.

وأوقفنا الأسلوب القرآنى العظيم -بيانا لشأن الصلاة- لدى

مجموعة من الأساليب الموضحة هول التهاون فى إقامة الصلاة ، وهول تركها ، وتصوير هول عاقبة ذلك.

وورد ذلك فى إطار جامع بين "الترغيب والترهيب" ، و"الكناية" المتصلة ببيان حال الإعراض والاستهزاء بالنداء للصلاة ، وحال القيام إليها فى تكاسل ومراءاة ، وحال الاستكبار عنها فى عدم الاستجابة للأمر "اركعوا" ، وحال الشدائد المتصلة بهول القيامة وتفاقم الأخطار بعدم القدرة على تدارك ما فات منها.

وورد "السياق" مبينا غايات ذلك ، واتخذ من "الاستفهام الإنكارى" ودوره الملحوظ فى التقريع والتوبيخ وبيان الوعيد مجالاته ، وورد تتاليه وتكرره أحيانا مظهراً مدى بعيداً لغايته ، كما ورد "الالتفات" معجِّبا من حال مصوَّرة فى إطاره كما فى قوله تعالى فى "جمع للقسم والالتفات والاستفهام الإنكارى الدال" : (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ)(١).

ومع "كثرة ورود الأمر وصيغه فى السياق" القرآنى الموجب إقامة الصلاة، إلا أن الفعل "حافظوا" اتخذ مكان الصدارة بينها متعلقا فى سياقه بالجمع بين المحافظة على الصلاة والقيام لله "قانتين" ، وبذكر الصلوات هكذا مجموعة ، وبتخصيص "الصلاة الوسطى" بفضل معين ، فى عطفها على الصلوات عامة، وذلك لما لصيغة "المفاعلة" التى تتصل بمصدر الفعل حافظوا على المشاركة وثراء الدلالة وتعلق العمل بجزائه وما يتصل به ذلك من مجاهدة فى سبيل المحافظة والمداومة ، مما ورد مؤكدا فى سياق آخر ، ومتصلا – عامة – بصفات الخشوع وطاعة الله، والقيام بما يجب للصلاة على أحسن وجه دون إخلال بشىء.

ثم اتصل السياق المتضمن الأمر بالمحافظة على الصلاة بيانا لشأنها – بذكر صلاة الخوف ، غير مجيز تركها حال الحرب أو الخوف

---

(١) سورة الانشقاق : الآيات : ١٦ : ٢١.

أو السفر ، وغير مجيز تأخيرها عن وقتها فى تلك الأحوال ، وورد فى ذلك ذكر الصلاة بيانا لكيفية "صلاة الخوف" خمس مرات "إظهارا فى مواضع الإضمار" ، عناية بذلك الشأن ، دالا فى جميع ذلك على تعظيمها فى كل حال ، وعدم جواز تركها أو تأخيرها مطلقا.

واتضح بيان شأن الصلاة فى إطار "تعدد ما يتعلق بها من الصفات" ، "وتكرار ذلك فى أكثر من سياق" ، فهو من أشد وجوه الإعجاز البلاغى – هنا – ظهورا ، فإلى جانب ما يحققه من التوكيد ، فإنه يأخذ بيد النفس ليثبت فيها الحق وينفى ما سواه مما لازمها ، عارضا لها ما يكرره من القضايا وعظا وزجرا ، وترغيبا وترهيبا فى إطار سياقات متنوعة ، لترى الأمر الواحد فى أكثر من إطار ، فيقترن لديها ما تراه فى حين ومشهد وسياق بعينه بما رأته فى سياق آخر من المشاهد وأنماط السياق ، فيكون فى كل مرة باعثا لها على إدراك شأنه ، وإعادة تذكره ، وبث المزيد من الرغبة فيه أو الرغبة عنه.

وقام "التعريف والتنكير" إلى جانب غيرهما – بدور ملحوظ فى ذلك ، كما قام "الوصف الجامع فى ألفاظ بعينها" بالإشارة إلى بيان شأن المصلين وصفاتهم ، ومن ذلك الألفاظ : "المخبتين – المحسنين – القانتين" .

أما "النداء" فقد ورد – هنا – مرتبطا بالحث وبيان الشأن ، فاقترن نداء المؤمنين بالوصف بالإيمان ثناء وتكريما ، وتحقيقا لغرض التنبيه إلى ما يوجبه الإيمان من طاعة وإذعان.

وجاء "النداء مكررا" استدعاء لتجديد الاستبصار واستشعار عظم الشأن عند كل خطاب ، وحثا على عدم الفتور أو الغفلة عنه.

وجاء "النداء للنبى (ﷺ)" – فى ذلك – مقترنا بالأمر بقيام الليل على نحو مخصوص ، وقامت "الدلالات اللغوية" ببيان شأنه وما يشتمل عليه من: "ترتيل القرآن"، و"التبتل" ، و"الخشوع" ، و"تفضيل التهجد على الهجود" ، و"التشمر على التزمّل"، و"أثر القيام بالليل – خاصة – فى خلو النفس من شواغلها" ، و"موافقة القلب ما ينطق به اللسان من ألفاظ القرآن الكريم وذكر الله تعالى".

وورد نداء "نساء النبى" بهذه الإضافة بيانا لشأنهن ، وما يترتب على أمرهن بما أمر الله – سبحانه – من إقامة الصلاة وغيرها من شأن وفضل، ورد بيانه فى أسلوب القصر بإنما.

واشتمل نداء المؤمنين عامة على ما تعلق بجوانب التشريع فى الصلاة والوضوء والطهارة والتيمم ، فى إطار "أساليب شرطية" مفصلة كل جانب وما يتعلق به من ظرف وحال وشأن ، وتعددت فى ذلك العناصر البلاغية الموضحة لجوانب الإطلاق أو التقييد والوجوب أو الإباحة .

وورد تمييز الشأن مصدرا بندائهم – خاصة – فى الأمر بالسعى إلى صلاة الجمعة وترك البيع ، وقام الإظهار فى موضع الإضمار ، والشرط بـ "إذا" ، والاتصال بالفاء ، وتقسيم الأسلوب فى تعلق بعضه ببعض ببيان ذلك الشأن وما يجب له.

كما ورد أسلوب النداء فى إطار أسلوب "الوعظ والاستمالة للمخاطب" مبينا شأن الصلاة وكيفية الأمر بها ، والترقق فى الخطاب استمالة وبيانا لشأن ما يُدعَى إليه. كما ورد فى إطار "الدعاء" محققا غاية التضرّع بنداء الله عز وجل ، وغاية الداعى إبراهيم – عليه السلام – من إسكان ذريته عند بيت الله الحرام ، لتكون الغاية هى: إقامة الصلاة ، فى أسلوب تعددت فيه وسائل التكرار بالنداء وتحديد الغاية، وغيرهما من العناصر اللغوية الدالة.

واتخذ بيان شأن الصلاة مجالا لإيضاحه ببيان شأن "الأوقات" التى تتعلق بها، بيانا لفضلها وفضل ما يكون فيها من العبادة ، فذكر – بوجه خاص – "طرفى النهار" ، "وزلفا من الليل" ، "وقبل طلوع الشمس وقبل غروبها" ، "ومن آناء الليل"، "وأطراف النهار".

كما بين "فضل تلك الأوقات باقترانها بذكر الأماكن" على وجه العموم كما فى قوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)(١) .

---

(١) سورة الروم : الآيتان ١٧ ، ١٨.

كما توقف الأسلوب – ضمن ذلك – ليخص أوقاتا بوجوه من التميز على ما ذكرت فى إطاره بخصوصية زائدة فى إطار التعليل ، كما هو الحال فى تمييز "الفجر" و "التهجد" فى قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)(١).

كما أظهر "شأن الأماكن" التى تقام فيها الصلاة فأمر بأخذ أحسن الهيئات حال الاتجاه إليها ، وقرن ذكرها وعلو شأنها بما يجرى فيها من التسبيح والعبادة، وظهور الآيات كتبشر زكريا – عليه السلام – بيحيى ، ونداء الملائكة إياه "وهو قائم يصلى فى المحراب" ، والإسراء بمحمد (ﷺ) "من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى" الذى بارك الله حوله ، ودفع الله الناس بعضهم ببعض حفاظا على أماكن العبادة واستمرارها.

كما اتجه إلى "بيان شأن الصلاة ببيان شأن القراءة فيها وكيفيتها" ترتيلا، وتوسطا بين الجهر والمخافتة على نحو يلائم مقامها.

وكذلك "بيان شأن المصلين وأثر الصلاة فى نفوسهم" فى مواجهة ما قد يعتريهم من ضيق الصدور والشدائد ، موضحا ما يعنيهم ويستمدون منه قوتهم من صلة بالله تعالى مشيرا بألفاظ وتراكيب دالة على ما يصاحب ذلك من قوة ومجاهدة فى مثل : "يمسِّكون" ، "يدرءون" "وصبروا ابتغاء وجه ربهم" وما إليها.

كما اقترن ذلك بجانب التذكير والتثبيت ، فى إطار "ذكر أهوال القيامة" ، والاستماع إلى الصيحة ، وبيان عاقبة المكذبين والمرائين بصلاتهم فى جانب ، وذكر "صفات الخشوع" فى نفوس المصلين مقابل "استثقال الصلاة" فى نفوس غيرهم، "واليقين" بلقاء الله تعالى مقابل "الإنكار" للبعث لدى غيرهم.

وهكذا اتضحت عناية القرآن الكريم ببيان شأن الصلاة فى تسميتها بالصلاة، وفى اختيار لفظ الإقامة وما يتصل به ليقترن بها دالا على ما يجب نحوها، وفى اختيار الألفاظ الجامعة لصفاتها وشأنها من

---

(١) سورة الإسراء : ٧٨ ، ٧٩.

ميثاق وبر وما إليهما ، وتنوعت فى جميع ذلك الأساليب البلاغية الدالة بحسب ما اقتضاه المقام فى كل منها، وتطلبه الغرض من سوقها ، فتعددت هذه الأساليب ، وتنوعت الصيغ، وتوقفت الأذهان لدى الألفاظ الجامعة والصفات العديدة ، والشئون المتميزة فى أوقات وأماكن وهيئات مخصوصة.

وقامت دقائق الأسلوب وعناصره فى ذلك بدورها الملحوظ "فصلا ووصلا"، "تحقيقا وتأكيدا" ، استفهاما "إنكاريا" أو "تعجيبيا" أو غيرهما ، "تشبيها" أو "استعارة" أو "كناية"، "تقديما أو تأخيرا" ، أو "قصرا" ، أو "التفاتا" ، أو غير ذلك مما تناوله هذا البحث وتمكن من استنباطه بتتبع تلك الأساليب ودراستها.

والله ولى التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

المصادر :

القرآن الكريم :

المراجع :

- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي. المطبعة الأزهرية. ١٣١٨هـ.
- أساليب الاستفهام في القرآن : عبدالعليم السيد فودة. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ١٩٥٣.
- أسرار الالتفات في ضوء الذكر الحكيم: إبراهيم علي حسن داود . مطبعة الأمانة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : عزالدين عبدالسلام. دار الفكر بدمشق.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي. دار الفكر العربي. ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني. دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٣١٩هـ - ١٩٧١م.
- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي. دار الفكر .بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢م.
- البرهان في علوم القرآن : الزركشي . دار التراث ، وطبعة بيروت . لبنان ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.
- البرهان الكاشف في إعجاز القرآن : كمال الدين الزملكاني [تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب] مطبعة العاني . بغداد.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزابادي . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- البيان عند الشهاب الخفاجي: فريد النكلاوى . مطبعة الأمانة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- البيان فى روائع القرآن: تمام حسان . مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م.
- تفسير جزء تبارك : عبدالقادر المغربى . تعليق على محمد حسب الله. المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
- تفسير الجلالين (تفسير القرآن العظيم): جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى. دار الفكر بيروت . لبنان ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير. مكتبة الإيمان. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت. دار الشروق. الطبعة العاشرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- روح المعانى : الألوسى. دار الكتب العلمية. بيروت . لبنان ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- ضياء التأويل فى معانى التنزيل : لأبى عبدالله محمد بن عثمان ، الملقب بفوديي بن عثمان. مطبعة الاستقامة – القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- فى رحاب البيان القرآنى "سورة إبراهيم" : محمد السعدى فرهود . القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- فى ظلال القرآن : سيد قطب . الطبعة الثالثة. دار الشروق ١٣٩٧هـ -١٩٧٧م.
- الكشاف : الزمخشرى : دار الفكر . الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- لسان العرب: ابن منظور الإفريقى. دار صادر بيروت – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

- المسائل البلاغية فى كتاب الصاحبى لابن فارس: فريد النكلاوى . مطبعة الأمانة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- معانى القرآن: الأخفش الأوسط. تحقيق فائز فارس. الطبعة الثانية ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازى.دار الغد العربى. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
- من أساليب القرآن بين المعنى والصناعة النحوية: حامد أحمد نيل. الطبعة الأولى.
- من أسرار البلاغة فى القرآن : محمد السيد شيخون. مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- من الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم: عبدالعزيز سيد الأهل. القاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوى . دار نهضة مصر . الفجالة . القاهرة ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: محمد الحبيب بن الخوجة. طبعة بيروت. الطبعة الثانية . ١٩٨١م.
- النبأ العظيم : محمد عبدالله دراز . مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعى . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد . الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز : أبو عبدالله الدامغانى . لجنة إحياء التراث. القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.